مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110 ISSN:2958-8537 Issue: N14
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

رؤى تكاملية في الدلالات والأبعاد المقاصدية لختم النبوة

Integrative visions in the semantics and dimensions of the purpose of the seal of prophecy

د. محمد منصف العسري

Dr. Mohammed Monssif Elasri

أستاذ باحث، المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، جهة الرباط سلا القنيطرة، المقر الرئيس الرباط، المغرب

research professor, Regional Center for Education and Training Professions, Rabat-Salé-Kenitra Region, Headquarters Rabat, Morocco

doc.monsif@gmail.com

https://orcid.org/0009-0000-1139-578X

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

الملخص

تعمل هذه الدراسة على النظر والبحث فيما ينطوي عليه ختم النبوة من دلالات وأبعاد مقاصدية، إسهاما في جهود مقاربتها واستجلائها؛ باعتبارها من قضايا المعرفة الرئيسة ضمن أولويات الفكر الإسلامي، وذات أهمية قصوى في الوعي الحضاري بالتاريخ والواقع الإنساني في علاقته بالوحي الإلهي. بما يتطلبه ذلك من تأمل لقضايا ذات قيمة كبرى في استلهام قواعد علمية، تنبني عليها إجراءات عملية، معِينة للإنسان على القيام بمهمته الاستخلافية وفق مراد الله. وذلك من خلال تقديم رؤى متكاملة فيما يخص دلالات وأبعاد ختم النبوة؛ في مجال العلاقة بسنة التطور ومنهج التغيير في حياة البشرية، وفي جانب ترسيخ إعمال العقل الاستدلالي في مناحي الحياة، ولزوم استمرارية الاهتداء بنهج النبي الخاتم، بموازاة تعزيز وتوسيع أدوار العلماء باعتبارهم ورثة الأنبياء، واستحضار أفق الاتجاه نحو عالمية الحضارة وفق الرسالة الإسلامية.

الكلمات المفتاحية: ختم النبوة، دلالات الختم، أبعاد الختم، استخلاف الإنسان، الرسالة الإسلامية.

Abstract

This study examines and researches the meanings and dimensions of the intentions involved in the seal of prophecy, as a contribution to efforts to approach and elucidate it. As one of the main issues of knowledge within the priorities of Islamic thought, and of paramount importance in the cultural awareness of history and human reality in its relationship to divine revelation. With what this requires in terms of contemplation of issues of great value in drawing inspiration from scientific principles, on which practical procedures are based, specific to man to carry out his succession mission according to God’s will. This is done by providing integrated insights regarding the implications and dimensions of the seal of prophecy. In the field of the relationship to the year of development and the approach of change in the life of mankind, and in the aspect of consolidating the implementation of the inferential mind in the aspects of life, and the necessity of continuing to be guided by the approach of the Final Prophet, in parallel with

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

strengthening and expanding the roles of scholars as they are the heirs of the prophets, and evoking the horizon of direction towards the universality of civilization according to the Islamic message.

Keywords: The seal of prophecy, the semantics of the seal, the dimensions of the seal, the succession of human, the Islamic message.

المقدمة

يدعو تجديد الفكر الإسلامي للنظر في جملة من الأسس المنهجية والمرتكزات العلمية، المفيدة في إيجاد إجابات عن بعض التساؤلات التي تطرحها إشكالات التجديد، انطلاقا من السؤال التجديدي الذي يفرض نفسه علينا؛ المتمثل في استجلاء الكيفية التي يتأتى بها لفكرنا المعاصر تعقل مضامين الدين الإسلامي في توافق مع ما ترمي إليه مقاصد الدين الكلية العامة، وفي انسجام مع متطلبات الحضارة المعاصرة المتجددة؛ بما يمَكن هذا الفكر من تحقيق الوعي بالحاضر والالتحام به، فضلا عن وعيه والتحامه بالماضي وفهمه، حتى يكون خادما للمشروع الإصلاحي والنهضوي الحضاري للأمة. ومن تلك المضامين الإسلامية المشار إليها بعض القضايا العقدية، التي يُعنى هذا العمل بأحد مجالاتها الكبرى المتعلقة بالنبوة، من حيث النظر في دلالات وأبعاد ختمها.

أهمية البحث:

تظهر أهمية البحث في إسهامه بالتجديد الفكري الذي يخدم المشروع النهضوي للأمة، بما يتطلبه ذلك من الاهتمام بالبحث في مدى امتلاك فكرنا الإسلامي للتصورات النظرية والصياغات العلمية، التي تقتضيها الأطر المعرفية الملائمة لشروط الوعي الحضاري بالتاريخ الإنساني في علاقته بالوحي الإلهي، الذي ارتبط به الإنسان منذ وجوده ونشأته، والاهتمام بتجديد هذا الفكر والعمل على تأهيله لفهم المسلّمات الدينية، وما تتضمنه من العقائد والشرائع التي أجمعت الأمة عليها، والغوص في معانيها لكشف ما تنطوي عليه من دلالات وأبعاد، وإبراز ما تفتحه من آفاق معرفية وفكرية، تعين الإنسان على القيام بمهامه الاستخلافية في الأرض، وفق مقاصد خالقه ومستخلفه عز وجل.

حيث يهتم هذا البحث بالنظر في مسار النبوات والرسالات السماوية لفهمه، والتفكر في ختم النبوة لإدراك ما ينطوي عليه من دلالات وأبعاد مقاصدية؛ باعتبار أن هذا الختم يشير إلى أن الإنسان صار له من المقومات الدينية المستمدة من الوحي الإلهي؛ المتمثل في القرآن الكريم، مع ما جاء منه ضمن البيان النبوي، ما يمَكنه من تحقيق الخلافة في

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110 ISSN:2958-8537 Issue: N14
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

الأرض على مراد الله تعالى دون حاجة لبعثة نبي جديد؛ باعتبار الكتاب المجيد وحيا لا تنضب معانيه؛ مصداقا لما يشير إليه قوله تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} [الكهف: 109] ، وهو المعنى الذي يشير إليه الحديث النبوي عن القرآن أنه «لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ»[1].

إشكالية البحث:

إذا كان الإصلاح والنهضة والتجديد ينبغي أن يعتني كل ذلك بجانب الفكر الديني أساسا[2]؛ فإن هناك إشكالا جوهريا ملحوظا يتعلق بالفكر النقدي الإسلامي في هذا الجانب؛ يتلخص في أن هذا الفكر غفل في الغالب عن مساءلة مسلّمات دينية، وتفكيكها وإبراز ما تنطوي عليه من مضامين فلسفية، أو ما تفتحنا عليه من آفاق معرفية وفكرية؛ مما يفسر الوضع الثقافي المشبع بالتقليد، الذي كرس توجه الفكر الإسلامي نحو مقاربة قضايا ثانوية، مقارنة ببعض أولويات الفكر من قضايا رئيسة في المعرفة الإسلامية.

ومن ذلك أن عقيدة ختم النبوة التي قررها الإسلام باعتبارها من خصائصه، وصارت مما هو معلوم من الدين بالضرورة؛ لم يُشَرِّح الفكر الإسلامي في الماضي ما يوجد وراءها من إيحاءات ودلالات، باعتبارها معتقدا دينيا هاما، رغم انتعاشة الفكر الكلامي. وحسب بعض الباحثين؛ هذا راجع بالأساس إلى غياب الحس الاستشكالي، والطرح المنهجي التقعيدي للدين الإسلامي[3].

ومن هذا المنطلق وعلى هذا الأساس؛ إن تشريح ما ينطوي عليه ختم النبوة يدعونا للتأمل والبحث عن إجابات عميقة للتساؤلات التي يثيرها هذا الختم، فيما يخص إيحاءاته ودلالاته وأبعاده، بما يتطلبه هذا الأمر من نظر في قضايا ذات قيمة كبرى في استلهام الأفكار والقواعد العلمية، وما ينبني عليها من الإجراءات العملية، المفيدة في حسن أداء

---

[1]. جزء من حديث مرفوع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم: جامع الترمذي؛ كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن، رقم الحديث: 2906.

[2]. كما يرى محمد عبده بـ «تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتباره من موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه، وتقلل من خلطه وخبطه، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني، وأنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم، باعثا على البحث في أسرار الكون، داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالبا بالتعويل عليها في آداب النفس وإصلاح العمل»؛ محمد رشيد رضا، ملخص سيرة الأستاذ الإمام (5)؛ مجلة المنار؛ غرة ذو الحجة 1323هـ - 26 يناير 1906م؛ المجلد 8 ابتداء من ص 881.

[3]. ينظر: عادل الطاهري، الدلالات الفلسفية لختم النبوة؛ 2014/3/01؛ موقع البديل http://elbadil.com/

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

الإنسان للأمانة العظمى التي حملها. خاصة أن عقيدة ختم النبوة لها ارتباط وثيق بمتطلبات الدعوات الإصلاحية والتجديدية ومجالاتها.

أهداف البحث:

تستهدف هذه الدراسة كشف ما يوجد وراء هذا المعتقد الإسلامي الخاص بختم النبوة من إيحاءات ومعاني عميقة، وذلك بالعمل على تقديم رؤى تكاملية فيما يرتبط بهذا الختم من دلالات وأبعاد مقاصدية؛ ويُمكن تلخيص أبرز أهداف البحث فيما يلي:

- التنبيه على ما يحيل عليه ختم النبوة من دلالة في مجال العلاقة بسنة التطور ومنهج التغيير في حياة البشرية.
- بيان ما ينطوي عليه هذا الختم من ترسيخ لإعمال العقل الاستدلالي، في مختلف مناحي الحياة العلمية والعملية، ضمن إطار المبادئ الدينية للرسالة الخاتمة.
- إبراز ما يستلزمه الختم من استمرارية الاهتداء بنهج النبي الخاتم الذي كان أنموذجا بيانيا للقرآن؛ محققا لقيمه ومجسدا للانتقال إلى مرحلة ما بعد النبوة.
- توضيح ما يترتب على الختم من تعزيز لأدوار العلماء وتوسيع لمجالات تلك الأدوار، باعتبارهم ورثة الأنبياء.
- الوقوف على ما يشير إليه الختم من أبعاد وآفاق، في الاتجاه نحو عالمية الحضارة، في إطار المبادئ والتعاليم الإسلامية.

منهجية البحث وخطته:

انطلاقا من إشكالية البحث والأهداف المحددة له، قامت هذه الدراسة بالأساس على المنهج التحليلي، الذي يهدف إلى فهم العلاقة القائمة بين عقيدة ختم النبوة ومستلزمات دوام تحقيق النبوة لمختلف أدوارها، واستمرار أدائها لوظائفها، فيما تحتاجه الإنسانية لإتمام مسيرتها في الحياة، وذلك إلى جانب ما يتطلبه هذا المنهج من دعم بالمنهج الاستقرائي، القائم على نهج مقاصدي استبصاري؛ يرمي إلى كشف العلل، وبيان الحِكم، والنظر برؤية شمولية تكاملية متناسقة، في الدلالات والأبعاد التي ينطوي عليها ختم النبوات والرسالات السماوية.

وهو ما تطلب معالجة القضايا التي يثيرها الموضوع، من خلال خمسة محاور رئيسة؛ تتحدد فيما يلي: - أولا: التنبيه على سنة التطور ومنهج التغيير - ثانيا: ترسيخ إعمال العقل الاستدلالي - ثالثا: لزوم استمرارية الاهتداء بمنهج النبي الخاتم - رابعا: تعزيز وتوسيع أدوار العلماء - خامسا: الاتجاه نحو عالمية الحضارة.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

ـ أولا: التنبيه على سنة التطور ومنهج التغيير

إن التاريخ الديني للبشرية يدل على ترقي الأديان بترقي الإنسان؛ فقد جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم في طور أشبه بالطفولة للناشئ الحديث العهد بالوجود، لا يألف منه إلا ما وقع تحت حسه، فلم يكن من حكمة تلك الأديان أن تخاطب الناس بما يلطف في الوجدان، أو يُرقى إليه بسلم البرهان، ثم مضت على ذلك أزمان، ووجدت الأنفس بنفث الحوادث، شعورا أدق من الحس وأدخل في الوجدان، فجاء دين يخاطب العواطف، ويحادث خطرات القلوب، فشرع للناس ما يصرفهم عن الدنيا، ويوجه وجوههم نحو الملكوت الأعلى، ثم كانت سن الاجتماع البشري قد بلغت بالإنسان أشده، وأعدته الحوادث الماضية إلى رشده، فجاء الإسلام يخاطب العقل، ويشركه مع العواطف في إرشاد الإنسان إلى سعادته الدنيوية والأخروية[1].

ويمكن النظر إلى هذا الترقي من جهة أخرى؛ في أن شرائع الأنبياء قبل محمد، صلى الله عليه وسلم، كانت تعالج إنسانية تفترس الخرافة عقلها العاجز عن تفسير الغوامض في الطبيعة والمجتمع والإنسان؛ فاتسعت مساحة الغيب في تلك الشرائع لتسد النقص في العلم واليقين، واهتمت تلك الرسالات بالجزئيات والتفاصيل، فإنسانها لا زال لا غنى له عنها. ومن هنا كانت سنة الله؛ كلما ارتقى الإنسان درجة في سلم التطور احتاج إلى شريعة جديدة تناسب الطور الجديد، فكانت البعثة لرسول جديد. ثم ختم الله سنته هذه ببعثة خاتم الأنبياء، حيث بمولده بلغت الإنسانية سن رشدها؛ فكان لا بد لها من رسالة جديدة تناسب ذلك الطور الجديد.

فبعد أن كان عالم الشهود يعالَج بأخبار الغيب، أعلنت الرسالة الجديدة أن المرجع هنا هو العقل، فكان ذلك الاقتصاد الملحوظ في الغيبيات. وبعد أن كانت سبل الدعوة هي النصوص والمأثورات والمواعظ؛ أضيفت إليها بل وتقدمتها الحكمة. وبعد أن كانت النصوص والمأثورات ترسم التفاصيل وترصد الجزئيات؛ أضحت معتنية بالمقاصد والكليات والقواعد، فاتسعت ميادين العقل وامتدت آفاق العلم وزادت مساحة اليقين المؤسس على البحث والنظر والاستقراء[2].

كما أنه في زمن الأنبياء السابقين كانت الطبقات البشرية متباعدة بعضها عن بعض، مع ما فيهم من جفاء وشدة في السجايا. لذا أتت الشرائع في تلك الأزمنة متباينة مختلفة مع موافقتها لأحوالهم وانسجامها مع أوضاعهم، حتى لقد أتى أنبياء متعددون بشرائع مختلفة في منطقة واحدة وفي عصر واحد، ولكن بمجيء خاتم النبيين كملت أهلية البشرية،

[1]. محمد عبده، رسالة التوحيد، تحقيق: محمود أبو رية، دار المعارف بمصر، ط3، ص158-160.
[2]. محمد عمارة، الإسلام وقضايا العصر، بيروت: دار الدوحة، ط1، 1980، ص8.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

وكأنها ترقت من مرحلة دراسة ابتدائية مرورا بدراسة متوسطة إلى دراسة عليا، وأصبحت أهلا لأن تتلقى درسا واحدا وتنصت إلى معلم واحد وتعمل بشريعة واحدة، فرغم كثرة الاختلافات لم تعد حاجة إلى شرائع متعددة، ولا إلى معلمين عديدين. وبانتشار تعاليم الدين الإسلامي في الأرض تكون المشيئة الإلهية قد هيأت الإنسانية لمستوى يجعلها أقدر على استيعاب مضامينه[1].

وهكذا كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة، ولبنات متراكمة في بنيان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع، وكانت مهمة اللبنة الأخيرة منها أنها أكملت البنيان وملأت ما بقي فيه من فراغ، وأنها في الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية الذي يمسك أركان البناء. وصدق الله إذ وصف خاتم أنبيائه بقوله سبحانه: {بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ} [الصافات: 37]. إنها، إذن، سياسة حكيمة رسمتها العناية الإلهية، لتربية البشرية تربية تدريجية لا طفرة فيها ولا ثغرة، ولا توقف فيها ولا رجعة، ولا تناقض ولا تعارض، بل تضافر وتعانق، وثبات واستقرار، ثم نمو واكتمال وازدهار[2].

ومما يجلي علاقة هذا التدرج التشريعي للرسالات السماوية بسنة التطور في حياة البشرية؛ النظر في صلة ختم النبوة بتطور دور العقل الإنساني، كما نبه على ذلك الشاعر والمفكر محمد إقبال، الذي يعتبر من أوائل من نبه على الدلالات الفلسفية لختم النبوة من تأمل الفكرة الدينية، في كتابه «تجديد الفكر الديني في الإسلام»، حيث قدم تأويلا جريئا لهذا الختم[3].

وبرجوعنا إلى نظر محمد إقبال لختم النبوة وفكرته؛ نجده حاول ربط الخاتمية بتطور دور العقل في الإسلام، وأشار إلى ذلك عند الحديث عن روح الثقافة الإسلامية في كتابه المشار إليه، وجاء كلامه في سياق الكشف عن القيمة الثقافية لختم النبوة، التي وصفها بالفكرة الإسلامية العظيمة. وقد ربط النبوة بمراحل تطور البشرية نفسيا واجتماعيا، حيث

---

[1]. سليمان عشراتي، واقع الإنسانية في ما بعد عصر النبوة مدخل للحديث عن دور العلماء ورثة الأنبياء، بحوث المؤتمر العالمي العاشر عن فكر بديع الزمان النورسي: دور النبوة ومكانتها في البحث عن الحقيقة في منظور رسائل النور؛ المنظم بين 22-2013/9/24، مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم، 2013، ص257.

[2]. محمد عبد الله دراز، الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، الكويت: دار القلم، ط2، (1390ه/1970م)، ص180.

[3]. لما كان تأويل محمد إقبال للختم جريء فقد أثار الكثير من الجدل، بين رافض ومؤيد، وفي الحالتين معا، فإن الفكر الإسلامي يدين بالفضل له بتطرقه لهذه القضية؛ حيث أغنى الفكر الإسلامي المعاصر بسؤال فلسفي تنوعت مقارباته تبعا للرؤية التي ينطلق منها كل مفكر، على أنه لفهم القراءة الفلسفية التي قدمها إقبال لختم النبوة؛ لا بد أن نستوعب دلالة مفهوم النبوة، وأن ننظر لفكرته من داخل الحقل الصوفي الذي ينهل منه، وبالنظر إلى أن النبي -على عكس الصوفي- ينفتح على الواقع الاجتماعي من أجل إصلاحه وتقويم كل خلل يعتريه؛ "الدلالات الفلسفية لختم النبوة"؛ موقع البديل، م، س.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110 ISSN:2958-8537 Issue: N14
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

قال: «من المؤكد أنه أثناء طفولة البشرية اكتسبت الطاقة النفسية ما أسميه الوعي النبوي، وهو حالة من الاقتصاد في الفكر والاختيار الفردي الشخصي، يتزود الإنسان خلالها بأحكام واختيارات وطرق للسلوك سابقة التجهيز، لعلها الفطرة التي فطر الله الناس عليها»[1].

وفي إطار فكرة التطور، حاول النظر إلى النبوة في الإسلام من زاوية العلاقة ما بين العالم القديم والعالم الحديث، وفي هذا السياق أكد أن العالم القديم قد أنتج بضعة مذاهب فلسفية عظيمة، عندما كان الإنسان بدائيا نسبيا ويكاد يحكمه الإيحاء، ولكن يجب ألا ننسى أن المذاهب في العالم القديم كانت نتاج فكر مجرد لا يمكنه أن يتخطى حدود إقامة منظومات لمعتقدات دينية غامضة وتقاليد سائدة، ولا يضع أيدينا على خصائص الحياة الحقيقية. وأنه إذا نظرنا إلى هذا الموضوع من هذه الزاوية، يبدو أن نبي الإسلام يقف ما بين العالم القديم والعالم الحديث؛ فهو من ناحية مصدر رسالته يعتبر منتميا للعالم القديم، أما من ناحية روح رسالته فيعتبر منتميا إلى العالم الحديث. وقد اكتشفت الحياة فيه مصادر أخرى للمعرفة مناسبة لاتجاهاتها الجديدة[2].

ويُعتبر مرتضى مطهري، من علماء الشيعة، متأثرا بفكرة محمد إقبال عن ختم النبوة، وقد أكد أن «الموجودات بارتقائها سلم الوجود تستفيد من الهداية بدرجة تتناسب مع درجة الكمال التي تبلغها؛ أي أن خصوصية الهداية وشكلها يتفاوتان وفقا لمراحل الوجود المختلفة»[3]. وبناء على ذلك، فإنه ما لم تصل البشرية إلى درجة النضج الكامل في العقل والعلم والتمدن؛ بحيث يمكنها أن تقوم بنفسها بحمل رسالة الله والقيام بمهمة الدعوة والتعليم والتبليغ والاجتهاد في أمور الدين؛ فإن الحاجة للوحي التبليغي تكون لا زالت باقية. وبوصول الإنسانية لمرحلة الرشد تنتهي تلقائيا مرحلة ذلك الوحي؛ فيحل العلماء محل الأنبياء الذين حملوا الوحي التبليغي، ويصبحون قائمين مقامهم[4].

ويقسّم مطهري الفترات التاريخية للحياة البشرية، تبعا لإقبال، إلى فترتين: فترة الطفولة، وفترة البلوغ والرشد العقلي، ويعتبر ظهور الإسلام في الحد الفاصل بين هاتين الفترتين. ومن ثم فإن وضع البشر في الأدوار السابقة كان يشبه تلميذ المدرسة الذي يُعطى كتابا ليتعلم منه، فإذا به يحوله إلى مزق بعد عدد قليل من الأيام! أما البشرية في العهد

---

[1]. محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، ترجمة: محمد يوسف عدس، القاهرة: دار الكتاب المصري، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 2011، ص206.

[2]. تجديد الفكر الديني في الإسلام، م، س، ص207.

[3]. مرتضى مطهري، ختم النبوة، ترجمة: عبد الكريم محمود؛ دار المحجة البيضاء/دار الرسول الأكرم، ص39.

[4]. ختم النبوة، م، س، ص41-40. ويقوم ذلك على النظر إلى الفرق بين النبوة التبليغية والنبوة التشريعية؛ حيث يقسّم الأنبياء إلى أنبياء ذوي شرائع، وأنبياء مبلغين لشرائع سابقة؛ وهم الأنبياء التبليغيون الذين يقوم العلماء مقامهم.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110 ISSN:2958-8537 Issue: N14
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

الإسلامي، عهد ختم النبوة، فتشبه العالم كبير السن الذي يعتني بكتبه ويحفظها ويستوعبها غاية الحفظ والاستيعاب، رغم رجوعه المتكرر إليها.

وذلك يعني أن الأمم السابقة لعدم رشدها لم تكن قادرة على المحافظة على كتبها السماوية؛ فكانت تلك الكتب تحرف وتُبدل أو تفقد، ولهذا كان من الضروري إتيان رسالة جديدة، أما عصر نزول القرآن فقد اقترن ببلوغ العقل البشري نضجا يؤهله للحفاظ على ميراثه العلمي والديني[1]، ولذلك هيأ الله لكتابه، الذي كان المسلمون يحفظونه في الصدور والسطور، أسباب حفظه من أي تحريف أو تبديل، وهذا أحد أبعاد الخاتمية.

وتبعا لتقسيم فترات تطور البشرية، يتبين بُعد آخر لها يتمثل في أهلية البشر لتقبل الشريعة الخاتمة؛ ففي فترات الشرائع السابقة لم يكن الناس قادرين على استيعاب المخطط الكامل لمسيرتهم والاستمرار في طريقهم بمساعدته؛ لذا كان من اللازم تجدد الشرائع لإرشادهم في كل مرحلة، أما في عصر الرسالة الخاتمة فقد تحققت قدرة الإنسان على استيعاب المخطط الكامل؛ فانتفت علة تجديد النبوات والشرائع فجاء الدين الكامل والجامع. ومن ثم فإنه «تختلف رسالة نبي الإسلام عن جميع الرسالات الأخرى في أنها قانون وليست خطة، فهي دستور للبشرية ولا تختص بمجتمع (...). الإسلام خطة شاملة وجامعة وكلية ومعتدلة ومتوازنة تحوي جميع الخطط الجزئية والقابلة للتطبيق في جميع الأحوال»[2].

وذلك يحيلنا على سنة التطور ومنهج التغيير في حياة البشرية ضمن مبادئ المنهج القرآني في علاقة ذلك بختم النبوة، كما جاء في سياق بيان احميده النيفر للترابط المفاهيمي القرآني، الذي يوضح أنه تتولد عنه ثلاثة مبادئ منهجية، تشير إلى العلاقة بين الخاتمية والتنبيه على سنة التطور ومنهج التغيير في المجتمعات؛ ومن ذلك: أن مقولة "القرآن كتاب هداية" تُفضي إلى اعتبار أن كتاب الهداية هو الكلام المتعالي المنزَّل والحيّ، وأن المقصد من تنزيله وحياته هو التغيير والإصلاح بالانضواء في المنظومة الحضارية.

لذلك فكتاب الهداية ينبغي أن يُقْرَأ ويُفَعَّل على أساس خصوصيته ومراميه، وباعتبار أن التغيير والتطور في حياة البشر والمجتمعات الإنسانية من السنن الكونية المستمرة. وأن نبوّة محمد، صلى الله عليه وسلم، إيذان بنهاية عصر وبداية عالَم، ففي تلك النبوة استمرار للعصور القديمة باعتبار مصدر الرسالة، وبداية لعالم حديث وُلد معه العقل

[1]. ختم النبوة، م، س، ص42-43.
[2]. المصدر نفسه، ص23-24.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

الإنساني، وظهرت فيه ملَكة النقد والتمحيص والتفكير الفردي والاختيار الشخصي، بعد أن كانت الأحكام والاختيارات تعدّ من قبلُ خارج إرادته ودون اعتبار لأساليب عمله.

وأن جماع ذلك بشارةٌ بالإنسان الساعي إلى الكمال سعيا يجعله لا يخشى من التاريخ، مجالِ صنعه لذاته واتساع معرفته وتعلّمه من العالَم الخارجي وارتقائه بمجاهدته الدّينية المتمثلة للنبوة الخاتمة، التي تعينت في العروج الذي استتبع حضورا في الواقع الموضوعي الدنيوي وضمن شروط التاريخ. فهذه المبادئ، بما تشتمل عليه من دلالة معرفية وأدوات مفهومية، قادرة على أن تتيح التقعيد للمنهج القرآني في التغيير؛ فهو منهج رافض للحتمية والجبرية العامة المتحكمة في الإنسان والتاريخ، ومقر بتطور مفهوم الذات القابلة لأن تصبح قوة حرة أمامها غايات ومطالب مختلفة وجديدة[1].

ومن ثم يحق التساؤل عن أيّ أساس ديني اختاره الخطاب القرآني تتويجا لقضايا التغيير؛ بحيث يكون مكمّلا لنسقها التجديدي بصورة جليّة تكشف خصوصية منهجه؟ وبهذا الخصوص يتناول احميده النيفر ختم النبوة باعتباره من قضايا التغيير كما يبرزها الخطاب القرآني؛ بالنظر إلى أن قضية الخاتمية هي العنصر المكمّل للقاعدة المفهومية للبناء المركب الذي يقيمه الخطاب القرآني لتناول إشكالية التغيير؛ ذلك أن الدعوة إلى اهتداء الإنسان بصورة تجدّد ذاته وتفعّلها بما يكسبه رؤية وعلاقة مميزة بالعالَم؛ بحيث لا يبقى العالَم لمجرد الرؤية أو أنه يُعرف بالتصور فقط؛ بل يصبح المجالَ الذي يُعرف ويُعاد بالعمل المستمر؛ وهذه الدعوة تستدعي تأسيسا دينيا وفكريا مميزا.

فما جاءت قضية ختم النبوة لترسيه ليس مجرد نفي ظهور نبوة أخرى فقط؛ بل هو التجسيد لمشروع الإنسان الجديد الذي لم يعد بحاجة إلى نبوة جديدة بعد أن جاء محمد، صلى الله عليه وسلم، مبشرا بالإنسان الساعي إلي الحق والكمال، الإنسان الواعي بمسؤوليته، والصانع لذاته، في عالَم مسخر له معرفيا وموضوعيا. لذلك فالقول بأن الرسالة المحمدية هي آخر الرسالات السماوية هو إبرازٌ، من جهة أولى، للخيط الناظم والقيمة المتفق عليها بين جميع الرسالات، وهو الارتباط بالمفارق وبالوحي، تلك الطاقة الشاملة والمطلقة التي لا تصمت ولكنها لا تكرر نفسها؛ لأنها التعبير عن الحي السميع البصير. ومن جهة ثانية؛ هو تصريحُ الرسالة الخاتمة بالمسكوت عنه في موكب الأنبياء السابقين، والمجسد للسيرورة التاريخية التي تتمثل طاقةَ الوحي وحضوره الموصول.

---

[1]. احميده النيفر، قضايا السلم الاجتماعي ومناهجه في القرآن الكريم، مجلة التفاهم http://tafahom.om/ العدد 42، سنة (1434هـ/2013م).

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

من ثم إذا كانت النبوة الخاتمة تنطوي على مبدأ استحالة بقاء الوجود البشري معتمدا إلى الأبد على مِقوَد يقاد منه؛ فإن ذلك يمكّن مفهوم استخلاف الإنسان في الأرض من دلالة واضحة في مداها الإنساني وبعدها القيمي. هو نفي أن يكون نمو الحياة ومصيرها رهين إحلال العقل محلَّ الشعور الديني أو إلغاء للمجاهدة الروحية، وإثبات لرؤية جديدة ومجددة للإنسان والعالَم. فقضية الخاتمية على هذا تناهض ما اتجه إليه الفكر الديني لعدة قرون في حمأة الجدل العقدي والروح الدفاعية عن الإسلام، وما فرضه واقع سياسي وفكري مأزوم من عقلية الإيحاء بامتلاك نهائي للحقيقة واعتقاد أن الخلاص والنجاة حكرٌ على فرقة بعينها لا تتجاوزها لغيرها.

ذلك التوجه لم يكن ليفضي في النهاية إلا إلى إفراغ الاستخلاف من كل حس تاريخي ومن كل فاعلية تجديدية يحفز عليها الوحي. فقراءة قضية ختم النبوة وفق مقتضيات إشكالية التغيير الذي ركّزه الخطاب القرآني يجعل الخاتمية إسهاما في إذكاء قيمة الحرية، وعنصرا فاعلا من عناصر ترسيخ التكامل الذي أقامه الخطاب القرآني بين السيادة الاستخلافية ومقتضيات الاجتماع والتاريخ، وما يتضمنانه من معاني الإرادة والحرية والحراك والتجديد. وما يفيده تمثّل القضايا التغييرية في دلالتها المنهجية هو إيصالنا للوقوف على خصوصية المنهج القرآني في التغيير. لذا لا بد من التساؤل: عن المجاهدة في ترابطها مع استخلاف الإنسان، في فرديته ومجتمعيته، ومع العالَم المُسخّر بالسنن والمتسع في أبعاده باستمرار؟ ثم إلى ماذا نتوصل عندما نعي ذلك ضمن مبدأ الخاتمية؛ بما يعنيه من أن النبوة بلغت قمّة وعيها بإدراكها الحاجة إلى إلغاء النبوة نفسها؟[1].

لعل جانبا من الإجابة على مثل هذه التساؤلات تُستوحى من أن ختم الشيء يحيلنا على بدايته، فالحديث عن ختم النبوة يستدعي تذكر بدايتها، فهي حدث في التاريخ، وكل بداية لها نهاية وكل تطور ينتهي إلى بناء، فجاء ختم النبوة ليقطع مع المفهوم السائد للأمم ويؤسس لأمة جديدة، ويبشر بمولد إنسان جديد في زمن جديد، ويؤطر العلاقة بالماضي ويدعو إلى نقدها ومراجعتها؛ هذا المعنى يتجلى بوضوح في دعوة القرآن لإنهاء المقارنة والاحتكام إلى الماضي وترك المألوف منه في الماضي والتوجه لبناء الحاضر والمستقبل.

ومَفصلة الزمان هذه يمكننا اعتبارها أولى دلالات ختم النبوة في التاريخ، ومنهجية القرآن في العلاقة مع التاريخ الديني بالأخص؛ بإحياء النسق الحي فيه والهيمنة على المحرف والطائفي منه، يؤكد عناية القرآن بالزمان وتأكيده على بعث نبي الإسلام بين عالمين قديم وحديث. وهذا يحيلنا إلى طبيعة ختم النبوة والإجابة على الإشكال الجوهري الذي

[1]. قضايا السلم الاجتماعي ومناهجه في القرآن الكريم، م، س.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110 ISSN:2958-8537 Issue: N14
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

تطرحه: إذ كيف يمكن التسليم بالحاجة إلى الوحي ثم الحكم بختمه؟ وكيف يمكن القول إن الرسالة الخاتمة هي الأولى، وأن ما أتى قبلها زمانيا هو بعدها ذاتيا، وما يختلف به عنها تحريف لها؟

ولعل ما يمكن أن نجيب به؛ هو تحديد طبيعة الإسلام بما هو دين يستعيد الرسالة الإلهية في التاريخ وينقد التدخل الإنساني في الدين، ويتجه إلى الإنسان بما هو إنسان بغض النظر عن التصنيفات التي قد يضفيها عليه الزمان أو المكان أو النسب أو التاريخ.

إن فكرة ختم النبوة بدلالتها على اكتمال الدين الحق الذي جاء به الرسل إنما تخص الدين الإلهي في علاقته بالإنسان، هذه العلاقة التي تتأسس على فطرة الإنسان وما أُوتيه من ملكات هي مناط الابتلاء والتكليف، فعلاقة الإنسان بالدين تتجه إلى بعدين؛ البعد الطبيعي الإنساني والبعد الغيبي المتجلي في الوحي والنبوة، هذه الثنائية هي التي تحدد طبيعة الإسلام في ختمه للنبوة وتوجهه للمستقبل[1]. فقد طرح الإسلام رؤية جديدة للحياة تبدأ في داخل الإنسان في عقله وقلبه، وتنتهي في خارجه لكي تصوغه إنسانا جديدا متفوقا قادرا على التغيير المطلوب في بنية العالم، والتحكم من خلال ما أبصر من السنن الإلهية بالحركة التاريخية لإعادة البشرية إلى المنهج المتوافق مع تلك السنن[2].

- ثانيا: ترسيخ إعمال العقل الاستدلالي

تتكشف دلالة ختم النبوة في هذا الجانب بالنظر إلى أن تجدد الوحي كان حاجة ملحة في المجتمعات ما قبل الإسلامية؛ لأنها، كما بينا سابقا، كانت إبانها تجتاز مرحلة الطفولة المتسمة بالاقتصاد في التفكير، فكانت النبوة تنوب عن العقل في التفكر والنظر، أما وقد بلغت الإنسانية نضجها ورشدها، مع نمو الفكر وملكة النقد؛ فقد برز العقل الاستدلالي الذي يجب تقويته بالحد من نمو الأساليب الأخرى للمعرفة[3]. ومن ثم وردت صيغ التعقل في القرآن في مواضع كثيرة، معظمها تنبه على التمييز بين الحق والباطل من خلال النظر والتفكر في ملكوت السماء والأرض.

---

[1]. عبد الرحمن حللي، منهجية الرسالات ودلالات ختم النبوة؛ مجلة إسلامية المعرفة، السنة العاشرة، العدد 40، ربيع 1426هـ/ 2005م، ص69، وأيضا في: 2006/3/03؛ موقع الملتقى http://www.almultaka.org/home.php

[2]. عماد الدين خليل، حول إعادة تشكيل العقل المسلم، كتاب الأمة 4؛ قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط2، رمضان 1403هـ، تقديم: عمر عبيد حسنة؛ ص17.

[3]. تجديد الفكر الديني في الإسلام، م، س، ص206-207.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

وإذا أخذنا المفردات المشابهة للتعقل؛ مثل التفكر والتدبر نجد القرآن استعملها أيضا بكثرة؛ مما يؤكد دعوته إلى البصيرة فيما يتعامل معه الإنسان وتأكيده على إعمال العقل. ولا شك «أن العقل في الإسلام دليل الوحي ووسيلة فهمه ونقله ومحل تكليفه، وأن الوحي من بعض الوجوه يمكن أن يعتبر أحد مدارك العقل ومعارفه»[1].

وفي إطار تقوية الإسلام للعقل الاستدلالي الذي برز في عصر الرسالة الخاتمة؛ نجده عمل على تربية العقل القادر على معرفة علل الأحكام التي تشكل مناط القياس، وإدراك حِكم التشريع، ومقاصده ومستوياتها، والمتمكن من التمييز بين الوسائل والمقاصد، والموازنة بين الأمور وتحديد الأولويات، والمتبصر بأحوال المجتمعات والأمم، القادر على فهم السنن الاجتماعية؛ من خلال استقراء وتتبع مسار نشوء الحضارات وانهيارها؛ لاستيعاب الدروس والعبر التاريخية والاستفادة منها. وبذلك عرف العقل البشري تحولات كبيرة جددته وأعادت تشكيله، وطرحت تجاهه آفاق شاسعة، دعي للتحرك إليها والاستجابة لها على مختلف المستويات. وتتجلى، عند عماد الدين خليل، أبعاد تلك التحولات والنقلات التي نفذها الإسلام، فأعاد بها تشكيل العقل البشري ودفعه إلى العطاء والإبداع؛ فيما يلي:

أ. النقلة التصورية الاعتقادية؛ فإنه ما من خطوة في تاريخ البشرية حررت العقل وكرمته ووضعته في موقعه الصحيح كهذه الخطوة: تحويل التوجه الإنساني من التعدد إلى الوحدة، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن عشق الأصنام والأوثان إلى محبة الحق الذي لا تلمسه الأيدي ولا تراه العيون؛ كسرٌ للحاجز المادي باتجاه الغيب، وتمكين للعقل من التحقق بقناعات تعلو على معطيات الحس.

ب. النقلة المعرفية؛ التي عملت في صميم العقل من أجل تشكيله بالصيغة التي تمكنه من التعامل مع الكون بالحجم والطموح الذي جاء الإسلام لكي يمنحهما الإنسان. إن نداءات القرآن المنبثقة من فعل القراءة والتفكر والتعقل والتدبر لم تخفت نبرتها طيلة مدة نزوله؛ ليتشكل العقل من جديد ويتلاءم مع التوجه المعرفي الذي أراده الإسلام. بل إن نسيج القرآن نفسه في مجال العقيدة والتشريع والسلوك والحقائق العلمية؛ يمثل نسقا من المعطيات المعرفية كانت كفيلة أن تهز عقل الإنسان، وأن تفجر ينابيعه وأن تخلق في تركيبه خاصية التشوق المعرفي.

ج. النقلة المنهجية؛ وهي ترتبط بالنقلتين السابقتين وتنبثق عنهما، وقد أتاح الإسلام للعقل أن يتحقق بها وأن يتشكل وفق معطياتها، وهي ذات ثلاثة اتجاهات:

[1]. عبد الرحمن الطريري، العقل العربي وإعادة التشكيل، كتاب الأمة 35، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط1، شوال 1413هـ، تقديم: عمر عبيد حسنة، ص14-15.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

أولا: اتجاه السببية؛ فمن خلال التمعن في نسيج القرآن نجد كيف منحت آياته العقل رؤية تركيبية للكون والحياة والإنسان تربط بين الأسباب والمسببات، تسعى إلى أن تضع يدها على الخيط الذي يربط بين الظواهر والأشياء. لقد أراد القرآن أن يجتاز بالعقل مرحلة النظرة التبسيطية المفككة التي تعاين الأشياء والظواهر كما لو كانت معزولة منفصلا بعضها عن بعض. إن الكشف عن السببية والأخذ بشروطها المنهجية كسب كبير للعقل البشري، وإضافة قيّمة مكنته من إعادة التشكل في صيغ أكثر قدرة على العطاء والإبداع.

ثانيا: اتجاه القانونية التاريخية؛ فلأول مرة في تاريخ الفكر يكشف الغطاء أمام العقل البشري عن حقيقة منهجية هامة هي أن التاريخ البشري لا يتحرك فوضى بغير هدف، وإنما تحكمه سنن كتلك التي تحكم الكون والحياة والأشياء، وأن الوقائع التاريخية لا تخلق بالصدفة، وإنما من خلال شروط خاصة تمنحها صفة معينة، وتوجهها لمصير محدد. إن القانون يحكم التاريخ تلك هي المقولة التي لم يكن قد كشف النقاب عنها قبل نزول القرآن الذي يقدم أصول منهج متكامل في التعامل مع التاريخ البشري، والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع فحسب، إلى محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية التاريخية.

إن المنهج الجديد الذي يطرحه القرآن يؤكد على أن التاريخ لا يكتسب أهميته الإيجابية إلا بأن يتخذ ميدانا للدراسة والاعتبار، تستخلص منه القيم والقوانين التي لا تستقيم أي برمجة للحاضر والمستقبل إلا على هداها. إن القرآن يطرح على العقل البشري لأول مرة مسألة السنن التي تسيّر حركة التاريخ وفق منعطفها الذي لا يخطئ، وعبر مسالكها المقننة التي ليس إلى الخروج عليها سبيل؛ حتى لكأن القرآن يلفت أنظارنا إلى أننا نستطيع أن نرتب على مجموعة من الوقائع التاريخية نتائجها التي تكاد تكون محتومة لارتباطها الصميم بمقدماتها اعتمادا على استمرارية السنن التاريخية.

ثالثا: اتجاه منهج البحث الحسي التجريبي؛ ولا يعدل الكشف عن السببية والقانونية التاريخية الكسب المعرفي الذي أحرزه العقل البشري بمنهج البحث الحسي التجريبي الذي كشف عنه ونظمه وأكده القرآن؛ حيث دعا الناس إلى التبصر بحقيقة وجودهم، وارتباطاتهم الكونية عن طريق النظر الحسي إلى ما حولهم انتهاء إلى آفاق النفس والكون، وأعطى للحواس مسؤوليتها عن كل خطوة يخطوها الإنسان في مجال البحث والنظر والتأمل والتجريب. وأكد القرآن على الأسلوب الذي يعتمد البرهان والحوار للوصول إلى النتائج الصحيحة، القائمة على الاستقراء والمقارنة، والموازنة والتمحيص استنادا إلى المعطيات الحسية الخارجية المتفق عليها، والقدرات العقلية التي تعرف كيف تتعامل مع هذه

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

المعطيات. إننا إزاء آيات قرآنية عديدة تضع البشرية في قلب العالم والطبيعة، وتدفعها إلى أن تبذل جهدها من أجل التنقيب عن السنن والنواميس.

د. النقلة الحضارية؛ وهي النتيجة المحتومة التي تمخضت عن تلك التحولات عقديا ومعرفيا ومنهجيا؛ بتشكل عقل جديد قادر على الاستيعاب والفعل والإضافة والإبداع. فالتحول الحضاري الذي قام به المسلمون، إنما جاء ثمرة للعقلية التي صاغها الإسلام ومكنها بتحولاته أن تؤدي دورها الشامل في إغناء الحضارة الإنسانية. فقيام الإسلام بتشكيل عقل فعال كان بمثابة إرهاص لمولد طاقة حضارية فذة، كان لا بد أن تلد عطاءها المتواصل بعد أن نضج الجنين في رحم تهيأت له شروط الميلاد. فشهد التاريخ حضارة الإسلام المبدعة، وكان الأمر بمثابة تحقق في الزمان والمكان للرؤية التي تنزل بها هذا الدين، فأعاد من خلالها صياغة النفس والقلب والعقل، ولولاها لما كان بمقدور العقل العربي بمواصفاته التقليدية القديمة أن يفعل ما فعله بعد إعادة تشكله بالمؤثرات والتحولات التي صنعها الإسلام[1].

وفي إطار ما ذكرنا يمكن أن نفهم كلام إقبال أنه قد اكتشفت في دعوة نبي الإسلام مصادر أخرى للمعرفة مناسبة لاتجاهاتها الجديدة؛ فميلاد الإسلام هو ميلاد العقل الاستدلالي؛ ففي الإسلام تبلغ النبوة كمالها باكتشافها لضرورة وضع نهاية لمسلسل النبوات، بحيث تكون هي النبوة الخاتمة ولا نبوة بعدها. فالحياة لا يمكن أن تظل إلى الأبد تقودها خيوط من خلفها، وأن على الإنسان لكي يحصل على كمال معرفته لنفسه أن يترك أخيرا ليعتمد على مصادره المعرفية الخاصة به، وقد كان إبطال الإسلام للكهنوت والملكية الوراثية، ودعوة القرآن المستمرة لإعمال العقل وممارسة التجربة، والتأكيد على النظر في الكون والتاريخ كمصادر للمعرفة الإنسانية، كل هذه كانت جوانب مختلفة لفكرة واحدة جديدة جاء بها الإسلام وهي ختم النبوة.

على أن هذه الفكرة لا تعني أن التجربة الصوفية قد توقفت الآن عن الوجود كحقيقة حيوية[2]؛ فهو يحدد هنا ثلاثة مصادر للمعرفة نوه بها القرآن: أحدها يرتكز أساسا على الشعور والتربية وتزكية النفس من خلال المجاهدة الروحية، والمصدران الآخران يعتمدان النظر والتفكر وإعمال الاستدلال العقلي وهما: أولا: النظر في الآفاق والأنفس، واستقراء سنن الله وآياته في الخلق، ثانيا: استقراء القوانين التاريخية والتفكر في أيام الله.

[1]. تنظر أبعاد تلك النقلات بتفصيل في: حول إعادة تشكيل العقل المسلم، م، س، ص35-65.
[2]. تجديد الفكر الديني في الإسلام، م، س، ص207-208.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

وذلك يبين أنه إذا كانت فكرة ختم النبوة قد ارتبطت في الإسلام بمولد العقل الاستدلالي، فإن هذا، كما أكد إقبال، لا يعني إحلال العقل محل الشعور إحلالا كاملا، فمثل هذا ليس ممكنا ولا مرغوبا فيه، إنما قيمة هذه الفكرة من الناحية العقلية هي في اتجاهها إلى خلق موقف نقدي مستقل تجاه التجربة الصوفية؛ إذ تجعلنا نعتقد أن كل سلطة شخصية تزعم أن لها أصلا خارقا للطبيعة قد فات أوانه في تاريخ البشر. ومثل هذا الاعتقاد قوة نفسية تحول دون ظهور مثل هذه السلطة ونموها، ومهمة هذه الفكرة هو أنها تفتح آفاقا جديدة للمعرفة في ميدان التجربة الروحية عند الإنسان[1].

ولعله يخشى أن يفهم كلام إقبال على إطلاقه؛ في قوله إن الإنسان لكي يحصل على كمال معرفته لنفسه؛ ينبغي أن يترك بعد ختم النبوة ليعتمد على مصادره المعرفية الخاصة به، فيفضي ذلك إلى التوهم بأن الإنسان، بعقله الاستدلالي، الذي أشار إلى بروزه بختم النبوة، يؤدي إلى الاستغناء عن الوحي، ليقوم العقل مقامه، ولخطورة مثل هذا الاتجاه لا بد من تقييد ما ذكره بضرورة المرجعية للوحي المتضمن في الرسالة الخاتمة لدرء أي التباس.

ولذلك وجدنا بعض الباحثين بعد تأكيده على أنه لا خلاف في أن وظيفة العقل في الإسلام من حيث السعة والأفق بعد ختم النبوة، قد اختلفت أو تغيرت عما كانت عليه قبل ختمها؛ بمعنى أن الختم جاء لكي يعطي سعة وأفقا أكبر لدور العقل، فأعلن عن مرحلة جديدة لمهامه ووظائفه؛ ينبه الباحث بعد ذلك على أن هناك نزاعا، خاصة في نظرية إقبال، حول هل أن ختم النبوة يعني إحلال العقل محل الوحي، وانتهاء عصر الوحي وبدء عصر العقل؟! فهناك من حاول تغليب هذا المعنى، من خلال قراءة تأويلية تهدف لبلوغ أغراض ومقاصد إيديولوجية يراد منها تضييق مساحة النص الديني ودور الدين في الحياة، وتقوم على خلفية فكرية مفادها أن عصر العقل إنما يبدأ بعد عصر الوحي والدين، وكون العقل يمثل مرحلة أعلى من مرحلة الدين!

لكن هذا المعنى ليس له ظهور في كلام إقبال ونظريته، وإنما هو تأويل إيديولوجي؛ فإذا كان ختم النبوة لا يعني عند إقبال إحلال العقل محل الشعور إحلالا كاملا، كما رأينا، فمن باب أولى عنده أن الخاتمية لا تعني إحلال العقل محل الوحي. ولذلك نجزم قطعا أن إقبالا لا يقترب أصلا من فكرة إحلال العقل محل الوحي، ولو أنه علم بهذا التأويل

[1]. المصدر نفسه، ص209.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

لنظريته لأعاد صياغتها بطريقة تقطع الطريق على تأول هذا المعنى[1]. وبهذا لا يبقى مجال للاستناد على نظرية إقبال لتداول مثل هذا الطرح أو قريب منه، الذي يتبناه العديد من دعاة العلمانية والحداثة[2].

والحقيقة أن دلالة ختم النبوة وأبعادها في مجال العقل وأهمية إعماله تظهر، بالإضافة إلى ما أسلفنا، في أن الإسلام جاء لتحرير الإنسان؛ حيث تجلت بذلك نفسه حرة كريمة، وأطلقت إرادته من القيود التي كانت تعقدها بإرادة غيره. وصاح بالعقل صيحة أيقظته من سباته، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام، ولكنه فطر على أن يهتدي بالعلم والأعلام، أعلام الكون ودلائل الحوادث. فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده، وخلصه من كل تقليد كان استعبده، ورده إلى مملكته يقضي فيها بحكمه وحكمته، مع الخضوع في ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته. فبهذا وما سبقه تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما؛ استقلال الإرادة، واستقلال الرأي والفكر، وبهما كملت له إنسانيته واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التي فطر عليها[3].

وبناء على ذلك، فبلوغ الإنسانية لنضجها ورشدها يقتضي الوعي بضرورة الاعتماد على الذات الإنسانية بما هي كائن عاقل، فلا تبقى البشرية دائما بمرحلة الطفولة والحاجة للإرشاد من الخارج. وبهذا تكون الرسالة المحمدية بمثابة منعطف هام جدا في تاريخ الفكر البشري، فمن حيث مصدرها ترتبط بالماضي، أما من جهة الروح الذي يسري فيها فإنها تدشن لفلسفة معرفية جديدة، قوامها النظر في التاريخ والطبيعة، بتوجيه من العقل. حيث أوصدت كل باب قد

---

[1]. زكي الميلاد، نظرية ختم النبوة ودور العقل في الإسلام، مجلة الكلمة http://kalema.net/home/ تصدر عن منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، العدد 72، السنة الثامنة عشرة، (صيف 2011م/1432هـ).

[2]. كما هو الشأن فيمن يتطلع لبناء حداثة حضارتنا، التي تحتاج إلى تصفية مع تاريخ طويل من الجهل والخرافة والاستبداد، وتحتاج إلى الوعي بأن كل ضروب الوصاية على العقل قد رفعت بفضل ختم النبوة، وينظر، في ذلك التطلع، إلى أن ختمها حدث معرفي يمثل خطاً فاصلا بين الحقبتين الأكبر في تاريخ العقل البشري: الحقبة التي كان فيها الإنسان واقعا تحت الوصاية المطلقة للمتعالي وللمعرفة النازلة إلى عقله من خارج، والحقبة التي ارتفعت فيها هذه الوصاية وأصبح بإمكان الإنسان فيها أن يعتمد على مصادره الخاصة به في معرفة الوجود: عقله والطبيعة التي يتفاعل معها بكيانه المادي والروحي إلى جانب خبراته وتجاربه التاريخية المعقلنة. والغاية القصوى للإسلام لا تقع قطعا في دائرة النبوة وإنما في دائرة ختم النبوة؛ ولهذا قال إقبال قولته العميقة: «إن النبوة لتبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى إلغاء النبوة نفسها». ولذلك يجب الكف عن اختزال الإسلام في معنى النبوة فقط، ففي ذلك هدر عظيم للمعنى البعيد الذي ينطوي عليه الإسلام. إذا ما تم الوعي بهذا الأمر نكون قد تغلبنا على أحد أكبر العوائق الثقافية أمام تحديث العقل الإسلامي، وأصبح بإمكاننا عندئذ أن نسود الطبيعة ونملكها لأنها مسخرة لنا، وأن ننظم علاقاتنا بطريقة عقلانية أفقية ولا تسلطية، بدون أن نضحي بنعمة الإيمان فنبني علمانية مؤمنة! "مصدق الجليدي، ختم النبوة بديلا عن موت الإله أو بناء الحداثة في السياق الإسلامي"؛ 2008/10/16؛ موقع أنفاس http://www.anfasse.org/

[3]. رسالة التوحيد، م، س، ص149-153.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110 ISSN:2958-8537 Issue: N14
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

يحجر على حرية الفكر، وأنهت عهد الوصاية على الذات العاقلة، وجلت الآفاق الرحبة للإنسان لينطلق مفكرا مبدعا في الوجود، مؤديا مهمته في خلافة الأرض وعمارتها بهداية العقل، وما رفض الكهنوت والوساطة إلا علامات دالة في درب التحرر[1]. حيث حارب الإسلام كل سيطرة توجد في الهياكل وفي الصوامع وفي التوابيت؛ لأنها سيطرة الكهان والرهبان التي تسلط الناس على رقاب الناس باسم الدين.

وهذا موقف للإنسان في الكون كله بين يدي الله بغير وساطة ولا فاصل ولا حجاب، تقدم به الإسلام ولم تمهده له البادية ولا المدينة، ولكنه نتيجة من تلك النتائج الإلهية الكثيرة[2]. فقد «رفع الإسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين في فهم الكتب السماوية، استئثارا من أولئك الرؤساء بحق الفهم لأنفسهم، وضنا به على كل من لم يلبس لباسهم، ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتب المقدمة، ففرضوا على العامة أو أباحوا لهم أن يقرؤوا قطعا من تلك الكتب، لكن على شريطة أن لا يفهموها ولا أن يطيلوا أنظارهم إلى ما ترمي إليه»[3].

والتاريخ شاهد على رجال الدين المسيحي بالغرب في العصور الوسطى، الذين جعلوا من أنفسهم حجابا على باب الله الفسيح؛ مهمتهم أن يمنعوا الناس الاتصال المباشر به، فاحتكروا لأنفسهم الصلة بالله، ووجدوها بضاعة رائجة، فبالغوا في إغلاء أسعارها؛ ومن ثم قيدوا العبادات بمكان يدخل في سلطتهم، وبوسيط بين الله وعباده، وبمراسم وطقوس كهنوتية لا تقبل بدونها، وكانوا يزعمون أن لهم سلطة الغفران والحرمان. والذين يدرسون التاريخ يعلمون أن حركة الإصلاح الديني في أوربا إنما يرجع الفضل في إيجادها إلى أثر الإسلام وعقيدته، التي مست أوربا نفحة منها عن طريق الصلات المختلفة؛ مما ساهم في الثورة على ما أسموه صكوك الغفران، وتحرير العبادة من رق الكهنوت[4].

ومما يرتبط برفض الكهنوت والوساطة، والقضاء على الوصاية، وتأكيد حرية الفكر، لتمكين الإنسان من عمارة الأرض بهداية العقل؛ ما جاء به الإسلام، دين الإنسانية، من إقرار وترسيخ لمبدأ المسؤولية الفردية؛ حيث أن «للديانة الإنسانية مناط واحد هو ضمير كل فرد من أفرادها، فما لم يكن لهذا الضمير حساب، وعليه تبعة فلا ديانة لإنسان ولا لجملة الناس»[5]. وقد «كان القول الشائع أن عصيان آدم جريرة لا يسأل عنها وحده، بل يسأل عنها كل ولد من ذريته.

---

[1]. الدلالات الفلسفية لختم النبوة، موقع البديل، م، س.

[2]. عباس محمود العقاد، مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية؛ كتاب الهلال 50؛ دار الهلال، القاهرة -مصر؛ رمضان 1374هـ -ماي 1955م، ص134-135.

[3]. رسالة التوحيد، م، س، ص153.

[4]. يوسف القرضاوي، العبادة في الإسلام، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط12، (1405هـ/1985م)، ص148-149.

[5] مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية، م، س، ص144.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110 ISSN:2958-8537 Issue: N14
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

أما الدعوة الإسلامية فالمسؤولية الفردية فيها شيء جديد كل الجدة لم يتطور مما تقدمه ولم يكن نتيجة قط لإحدى هذه المقدمات، ومعجزة المعجزات فيها أنها قامت بالمسؤولية الفردية حيث يصدها كل عرف قائم ويعوقها كل نظام مصطلح عليه في المعاملات والعقوبات (...). مرحلة شاسعة لم يعمل فيها تاريخ البشرية كله ما عمله الإسلام وحده مبتدئا بغير سابقة، بل مبتدئا على الرغم من العوائق والموانع والمناقضات. ولم تكن هذه المرحلة الشاسعة نافلة من نوافل الرأي على حواشي العقيدة، ولكنها هي الفتح الأكبر من فتوح الضمير في جميع مراحل التاريخ؛ إذ لا قوام للخلق ولا للدين بغير التبعة، ولا معنى بغير التبعة لتكليف ولا حساب»[1].

ويمكن القول إن رسالة الإنسان برزت وتجلت عندما ختمت الرسالات السماوية بالإسلام، الذي لم يدع أصلا من أصول الفضائل إلا أتى عليه، ولا أما من أمهات الصالحات إلا أحياها، ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها، فاستجمع للإنسان عند بلوغ رشده، حرية الفكر واستقلال العقل في النظر، ما به صلاح السجايا واستقامة الطبع، وما فيه إنهاض العزائم إلى العمل، وسوقها في سبيل السعي. فهل بعد الرشد وصاية؟ وبعد اكتمال العقل ولاية؟ كلا قد تبين الرشد من الغي، ولم يبق إلا اتباع الهدى والانتفاع به لبلوغ الغاية من السعادتين؛ لهذا ختمت النبوة[2]، بعدما «بلغت الإنسانية سن الرشد، وإمامها ومشيرها هو العقل المسترشد برسالة خاتم المرسلين؛ ولذلك كان زاد هذه الرسالة وإلهامها مستديما، وبالغا القمة في الغنى والعطاء»[3]؛ بما كُلف به الإنسان من النظر والتفكر في آفاق الكتابين: كتاب النص المسطور وكتاب الكون المعمور، وبهذا جعلت الخاتمية آفاق الإنسان بلا حدود؛ وكان كل سعي للتضييق على المعرفة الدينية أو الكونية هو سد للآفاق التي فتحها الإسلام للإنسان.

ـ ثالثا: لزوم استمرارية الاهتداء بمنهج النبي الخاتم

تحرص الأمم على تقديم النماذج المعبرة عن هويتها وتصورها للحياة لأفرادها؛ ابتغاء تأصيل مبادئها وقيمها في مجتمعاتها. وانسجاما مع ذلك فإن أسمى نموذج لترسيخ المبادئ والقيم في إطار بناء الشخصية المسلمة، وتوجيه مسارها الفكري والأخلاقي والتربوي، وفق منهج متوازن يستجيب للفطرة السليمة؛ لا بد أن يتمثل في النهل من الأنموذج الأمثل

[1]. المصدر نفسه، ص146-147.
[2]. رسالة التوحيد، م، س، ص169-170.
[3]. الإسلام وقضايا العصر، ص8.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

للإنسان الكامل، الذي تكوّن حياته المدخل التطبيقي لفهم وتنزيل أحكام الإسلام ومبادئه وقيمه في واقع الأمة أفرادا وجماعات ومؤسسات؛ من خلال تحري اتباع نهج سيرة النبي الخاتم والاهتداء بهديه.

وهو ما نص عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [الأحزاب: 21]، بما يعنيه ذلك من استمرار قيادة الرسول الكريم للأمة إلى قيام الساعة، وما يترتب عليه من لزوم دوام اتباع نهجه والاهتداء بهديه المتميز بالشمول، في انسجام مع خاصية رسالته الخاتمة التي تميزت بالعموم والكمال والدوام، فيما تحتاجه البشرية لإكمال مسيرتها وبنائها الحضاري؛ حيث كانت حياته، صلى الله عليه وسلم، تأسيسا نظريا وتطبيقا عمليا وأنموذجا حيا لتنزيل الرسالة الخاتمة في الواقع، وتجسيدا للانتقال إلى مرحلة ختم النبوة؛ فكانت سنته بيانا للقرآن الكريم، وسيرته تحقيقا للقيم التي جاء بها، إلى جانب ما كان يحرص عليه من تربية أصحابه على القيم الإسلامية، وتدريبهم على الاجتهاد؛ تأهيلا لهم، وتوجيها لسائر أمته، لحمل أمانة الرسالة بعد وفاته عليه الصلاة والسلام.

ذلك أنه كما أشار بعض الباحثين؛ فسنة الله قد أُحكمت أن يكون اتصال الإنسان المباشر بالله بواسطة النبوة مؤقتا، ليكون العهد بعدها في ذمة الإنسان؛ يبحث عن هدي الله وأسرار الكون من خلال ما أوتي من إمكانات وما امتلكه من مفاتيح الرسالات، فبختم النبوة تم تحرير الإنسان من وساطة المصطفين من البشر وربطه بالمطلق من خلال مفاتيحه، هذا الأفق إنما بدأ عند اكتمال الدين بمجيء الرسالة الخاتمة، التي تميزت بخصائص جعلت الدين أفقا يشد الإنسان إليه، فكانت دينا يختزل الأديان ويسترجع تاريخها ليصهره في خط واحد يؤول إلى مسؤولية الإنسان في علاقته بالإسلام.

وهذه الروح الجديدة في عالم الأديان تستدعي مساءلة هذا الدين الخاتم -الذي يبين أنه دين الله الواحد عبر التاريخ- عن خصائصه التي أهَّلته لتصحيح مفهوم الدين، وإلغاء الوساطة بين الله والبشر في تبليغهم شرائع الدين، ومن ثم محاولة فهم منهجية الرسالة الخاتمة في ضوء منهجيات الرسالات السابقة، ودلالات ختم النبوة في التاريخ الديني[1].

حيث يعتبر من تلك الدلالات -كما ألمحنا- لزوم استمرارية الاهتداء بنهج النبي الخاتم في شموله وعمومه؛ مما يدعو للإلمام بأهم الأسس التي ارتكز عليها منهج الهدي النبوي في جوانبه المختلفة، المُجَلية لأبرز خصائص الدين الخاتم، مع ما ينطوي عليه ذلك المنهج من أبعاد مقاصدية وأهمية كبرى في فهم وتنزيل شرائع هذا الدين وقيمه على الواقع في مختلف الأزمنة والأمكنة والأحوال.

1 ـ الشمول في المنهج النبوي المفيد لاستمرار الاهتداء به

[1]. منهجية الرسالات ودلالات ختم النبوة؛ مجلة إسلامية المعرفة، م، س، ص 47-48، وموقع الملتقى، م، س.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

مما يقرر لزوم استمرارية الاهتداء بمنهج النبي الخاتم ما يتميز به هذا المنهج من الشمول، الذي يتجلى في نواحي متعددة، يتلخص أهمها في الجوانب العقدية والمعرفية والتعبدية والأخلاقية.

أ ـ الجانب العقدي؛ حيث أنه لما كانت جميع تصرفات الإنسان تنطلق من عقائده الممثلة لتصوراته الدينية والمشكلة لأفكاره، والتي كلما كانت صحيحة واضحة كان نشاطه سديدا؛ فقد كان ترسيخ العقيدة الصحيحة هو الأساس الأول الذي استند عليه الهدي النبوي؛ ذلك أن النقلة التصورية، التي جاء بها القرآن ورسخها نبي الإسلام، حررت «العقل وكرمته ووضعته في موقعه الصحيح (...): تحويل التوجه الإنساني من التعدد إلى الوحدة، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن عشق الحجارة والأصنام والتماثيل والأوثان إلى محبة الحق الذي لا تلمسه الأيدي ولا تراه العيون؛ كسرٌ للحاجز المادي باتجاه الغيب، وتمكين للعقل من التحقق بقناعات تعلو على معطيات الحس»[1]، وعملٌ على تثبيت أركان العقيدة ودعائمها؛ ليعتقد الإنسان بوجود الإله الخالق للكون والمدبر له وفق نظام دقيق، وما يتبع ذلك من معرفة الإنسان بأصله ومصيره بعد الموت ووظيفته في الحياة[2].

والمحور الأساس الذي تبنى عليه العقيدة النقية من الشوائب والانحرافات يتلخص في توحيد الله وإفراده بالعبودية؛ ومن ثم كانت «التربية النبوية الرشيدة للأفراد على التوحيد، هي الأساس الذي قام عليه البناء الإسلامي»[3]؛ باعتباره يمثل المنتهى الذي تتعلق به قضايا العقيدة وآثارها وثمراتها، التي على رأسها الاستحضار الدائم لمراقبة الله، الذي يتحقق بقوة الإيمان من خلال التربية الفكرية والروحية؛ لذا عمل النبي الكريم في هذا الإطار على أمرين هامين يمثلان أساس الدين الإسلامي: أحدهما؛ توعية الإنسان بحقيقة الوجود؛ من خلال تعريفه بالخالق الذي أبدع كل شيء، ويرعاه

---

1. حول إعادة تشكيل العقل المسلم، م، س، ص35.

2. وقد «استمر النبي، صلى الله عليه وسلم، في غرس حقيقة المصير، وسبيل النجاة في نفوس أصحابه، موقنا أن من عرف منهم عاقبته وسبيل النجاة والفوز، سيسعى بكل ما أوتي من قوة ووسيلة لسلوك السبيل حتى يظفر غدا بهذه النجاة وذلك الفوز، وركز، صلى الله عليه وسلم، في هذا البيان على جانب مهم هو: أن هذه الحياة الدنيا مهما طالت فهي إلى زوال، وأن متاعها مهما عظم فإنه قليل»؛ د. علي محمد الصلابي، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث؛ دار المعرفة، بيروت ـ لبنان؛ ط. السابعة: 1429هـ/2008م، ص 111. حيث أثمر ذلك إدراكهم لمسؤولياتهم تجاه الخالق سبحانه، وأنفسهم، وإخوانهم في الدين، وغيرهم من الناس، ومن حولهم من موجودات، والتي أكد عليها النبي الكريم في حجة الوداع في قوله: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ»؛ صحيح البخاري؛ كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة، رقم: 7447، ود. محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة النبوية؛ دار السلام، القاهرة؛ ط. السادسة: 1419هـ/1999م، ص 325 و329.

3. «وقد آتت تربية الرسول، صلى الله عليه وسلم، لأصحابه ثمارها المباركة، فتطهر الصحابة (...) مما يضاد توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات» السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، م، س، ص 107.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110 ISSN:2958-8537 Issue: N14
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

ويرزقه، وسيحاسب الإنسان على أعماله ويجازيه عليها؛ مما من شأنه تربية النفس وتوجيهها نحو المثل العليا، ومراقبة الله، وإخلاص العبودية له، والتحرر من كل العبوديات. والأمر الثاني؛ توضيح منهج سلوك الإنسان فردا وجماعة، بما يكفل تحقيق مصالحه الخاصة والعامة، العاجلة والآجلة؛ من خلال البيان التطبيقي للسلوكيات الصالحة، والتحفيز على التقييم والنقد الذاتي؛ بالتعويد على محاسبة النفس وتحمل المسؤولية.

ب ـ الجانب المعرفي؛ المتمثل في النقلة المعرفية للإسلام التي تلقاها سيد المرسلين في تعاليم الوحي وطبقها في سيرته، والتي عملت في صميم العقل من أجل تشكيله بالصيغة التي تمكنه من التعامل مع الكون بالحجم والطموح الذي جاء الإسلام لكي يمنحهما للإنسان؛ ذلك أن نداءات القرآن المنبثقة من فعل القراءة والتفكر والتعقل والتدبر لم تخفت طيلة مدة نزوله؛ ليتشكل العقل من جديد ويتلاءم مع التوجه المعرفي الذي أراده الإسلام. بل إن القرآن نفسه يمثل نسقا من المعطيات المعرفية، كانت كفيلة بتحريك العقل، ودفعه للتشوق المعرفي[1].

وقد أمر الله خاتم أنبيائه بالقراءة في أول كلمة نزل بها الوحي: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق: 1]، وفي ذلك دلالة واضحة على فتح عهد جديد بالدعوة للعلم والتعلم وربط العلم بالقراءة والكتابة. فبالقراءة والعلم تُدرك دلالات آيات الله في الآفاق والأنفس، ويرقى الإنسان الدرجات العلا في الدنيا والآخرة[2].

وهذا المعنى ينسجم مع ما ورد من الدعوة إلى طلب العلم، والتنويه بالتعلم والتعليم، والاستزادة من العلم باستمرار، في كلام سيد المرسلين[3]، وما جاء عنه في فضل تعلم القرآن وتعليمه، وحثه على تعاهده[4]؛ لكونه أصل العلوم ومنبع المعارف والحِكم، إضافة لكثير من التطبيقات التعليمية العملية النبوية[5] التي حفظها تأريخ سيرة وهدي نبي الرحمة،

---

1. ينظر: حول إعادة تشكيل العقل المسلم، م، س، ص 42-46.
2. قال تعالى: {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: 3-5]، ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «اقْرَأْ وَارْقَ»، وهو وارد في سياق فضل قراءة القرآن والرقي بها يوم القيامة، إلا أن هناك من ينظر إليه من جهة عموم فضل العلم والتعلم، وأنه على قدر القراءة تنال الدرجات العلا وينال الرقي؛ فلا يقصر بذلك مدلوله على المعنى الذي ورد فيه، بل يعممه ليشمل قراءة القرآن وغيره والرقي للقارئ في الآخرة وفي الدنيا أيضا؛ ينظر: جودة سعيد، اقرأ وربك الأكرم، بيروت: دار الفكر المعاصر/لبنان، تصوير ط2، (1415ه/1994م)، ص 32-33، وينظر الحديث كاملا في: جامع الترمذي؛ كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ما له من الأجر، رقم الحديث: 2915.
3. ينظر: سنن ابن ماجه؛ باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم الحديث: 224، وجامع الترمذي، رقم الحديث: 2647، وسنن الدارمي؛ باب في فضل العلم والعالم، رقم الحديث: 336، ومسند إسحاق بن راهويه؛ رقم الحديث: 1128.
4. ينظر: سنن الدارمي، رقم الحديث: 3338، وصحيح البخاري؛ كتاب فضائل القرآن، باب استذكار القرآن وتعاهده، رقم الحديث: 5033.
5. من ذلك أنه كان -منذ بدايات الدعوة الأولى في دار الأرقم بمكة- يمارس التعليم، ويدعو الناس إلى العلم رجالا ونساء. وما أن بايعه وفد المدينة بيعة العقبة الأولى على الإسلام حتى أرسل معهم مصعب بن عمير؛ ليقرئهم القرآن ويعلمهم تعاليم الإسلام ويفقههم في أحكامه.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

ودعوته لنشر العلم وتوسيع دائرة المنتفعين به[1]، وتعليمه أصحابه العلم والعمل معا؛ بالربط بينهما باعتبار العلم شجرة والعمل ثمرة[2]؛ لكون العلم من شأنه أن يعين صاحبه على الخير وصلاح نفسه ومن حوله[3].

ج ـ الجانب التعبدي؛ حيث كان من أبرز مهام نبوة المصطفى بيان كيفيات أداء العبادات، وتصحيح ما وقع فيها من تحريف؛ لتؤدي العبادة إلى إسعاد النفس البشرية؛ لما فيها من توثيق للصلة المباشرة بين الإنسان وخالقه؛ ومن ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان يجد في عبادة ربه سكينة لنفسه وانشراحا لصدره، وكان يوجه الصحابة رضوان الله عليهم للاهتداء بهديه في ذلك[4]. فربى أصحابه على تزكية أرواحهم بأنواع العبادات، وأرشدهم إلى طرق تحقيق هذا المطلب؛ ومن أهمها التفكر في مخلوقات الله، والتدبر في كتابه، وممارسة الشعائر التعبدية، وكل عمل يكون بنية التقرب إليه سبحانه[5]، مرسخا هذا المعنى في نفوسهم من خلال تعاليمه[6]، المؤكدة على تصحيح المرء لوجهته وإخلاصه فيما يقوم به من تصرفات، باعتباره مستخلفا في الأرض ينفذ أوامر الله.

ومن ثم نستنتج أن العبادة بمفهومها الذي بينه نبي الرحمة تؤدي من جهة إلى تقوية العقيدة الصحيحة وتثبيتها، مع تقويم الخُلق وتحسينه وفق آداب الإسلام، كما أنها من جهة أخرى تعتبر هي الناحية العملية من العقيدة؛ فإذا كانت هذه

ثم بعد الهجرة مارس، صلى الله عليه وسلم، التعليم في مسجده بالمدينة، وبرزت عدة أسماء لصحابته في المجال التعليمي، كما ظهر أهل الصّفة بذلك المسجد، الذين تفرغوا للعلم والجهاد، وكان عددهم في تزايد؛ د. عبد الرحمن النقيب ود. صلاح مراد، مقدمة في التربية وعلم النفس؛ المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الرباط: 1407هـ/1987م، ص 17. ومن ذلك أيضا أنه عليه الصلاة والسلام في فداء أسرى غزوة بدر جعل التعليم وسيلة للفداء، فمن لم يكن عنده فداء دفع إليه عشرة من غلمان المدينة يعلمهم، فإذا حذقوا فهو فداء؛ صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم؛ بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام؛ المنصورة: دار الوفاء، ط2، (1420هـ/2000م)؛ ص 248.

1. ينظر مثلا: مسند أحمد بن حنبل؛ حديث جبير بن مطعم، رقم: 16738، وصحيح البخاري؛ كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة»، رقم الحديث: 7447.
2. مما ورد عنه صلى الله عليه وسلم في هذا الإطار: «إِنَّ قَلِيلَ الْعَمَلِ مَعَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَكَثِيرُ الْعَمَلِ مَعَ الْجَهْلِ قَلِيلٌ»؛ مسند الشهاب؛ عن عبد الله بن مسعود، رقم الحديث: 1015، وله عدة شواهد.
3. لذا فإن العالم الذي يعلم الناس أفضل من العابد، كما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ ينظر: جامع الترمذي، رقم الحديث: 2685.
4. من ذلك دعوته للاستراحة من متاعب الأعمال الدنيوية بالقيام للصلاة ومناجاة الله؛ ينظر: سنن أبي داود؛ رقم الحديث: 4985، والمعجم الصغير للطبراني، رقم الحديث: 262.
5. ينظر: السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، م، س، ص 111-112.
6. من تلك التعاليم بيانه صلى الله عليه وسلم أنّ كل عمل سواء أكان ذِكرا، أو سعيا للخير في الواقع، أو حتى ما هو من العادات أو من دواعي الغريزة، يُتقرب به إلى الله؛ ينظر: مسند أحمد، حديث أبي ذر الغفاري، رقم: 21482.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
Issue: N14 ISSN:2958-8537 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

الأخيرة راسخة كانت العبادة صادرة عن قلب مخلص وقصد سليم. لذا كان من منهج الهدي النبوي توجيه الناس لسلامة مقاصدهم، وتربيتهم على تصحيح نياتهم[1].

وبذلك يتبين أنه إذا كان إظهار العبودية لله وامتثال أمره هو علة العبادات كلها؛ فإن تربية النفس وصلاحها واستقامة الأخلاق تعتبر من الثمرات اللازمة للعبادة الحقة، فإذا لم تؤد إلى ذلك وجب إعادة النظر في كيفية أدائها بإحسانها حتى تنتج ثمارها؛ كما جاء في هدي المصطفى[2].

د ـ الجانب الأخلاقي؛ باعتبار أن المهمة الأولى لنبي الرحمة استهدفت الإصلاح الأخلاقي؛ حيث قال: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»[3]. وذلك يدل على الأهمية الكبرى التي أولاها الإسلام للتربية الخلقية، واعتنى خاتم الأنبياء بتطبيقها في الواقع؛ لانسجامها مع تعاليم العقيدة، وأحكام الشريعة، والفطرة[4] التي فطر الله الناس عليها، وأثرها العظيم في بناء الأمة.

ولذلك شكلت الأخلاق أساس إقامة المجتمع الإسلامي، وقاعدة المعاملات والعلاقات بين أفراده، باعتبارها منظومة شاملة ومتكاملة؛ كما يتجلى من آيات القرآن وأحاديث السنة، التي تزخر كل منها بالدعوة إلى التحلي بالأخلاق الحميدة ونبذ الأخلاق الدنيئة[5]. ويكفينا هنا الإشارة إلى أننا نجده عليه الصلاة والسلام ينفي الإيمان عمن لا أمانة له[6]، ويجعل

---

[1]. ينظر مثلا: سنن أبي داود؛ الحديث: 3664، وسنن ابن ماجه؛ الحديث: 252، ومسند أحمد؛ حديث أبي هريرة، رقم: 8252.

[2]. حيث أجاب من ذكروا له قوما يصلون ويقومون بما لا يليق بمن يصلي؛ بأن صلاتهم ستنهاهم؛ ينظر: العبادة في الإسلام، ص 116-117، ومسند أحمد، رقم الحديث: 9486، والإحسان في تقريب صحيح ابن حبان؛ كتاب الصلاة، باب النوافل، فصل في قيام الليل، رقم الحديث: 2560.

[3]. مسند أحمد، عن أبي هريرة؛ رقم الحديث: 8729، وفي رواية: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»؛ السنن الكبرى: البيهقي، ج 10 ص 323.

[4]. باعتبار الإسلام «دين الفطرة؛ وبمقتضى ذلك قيد كل نظرة أو اعتبار للنواميس أو مراعاة للمصالح بالمعروف من أخلاق الفطرة؛ أي تلك الأسس الأخلاقية التي أقرتها جميع الديانات والمذاهب السابقة على اختلاف نزعاتها وطبيعتها»؛ علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، مؤسسة علال الفاسي، ط4، (1411ه/1991م)، ص194.

[5]. تنظر نماذجها في مظانها، ومن ذلك مثلا ما في كتاب عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني: "الأخلاق الإسلامية وأسسها"، دار القلم، دمشق، ط: الثانية؛ 1407ه/1987م؛ الباب الثالث: الرسول ذو الخلق العظيم وتربية القرآن له في مجال السلوك الخلقي، ج1 ص435 وما بعدها، والباب الرابع: جوامع مفردات الأخلاق وكلياتها الكبرى، ج1 ص517 وما بعدها، والباب الخامس: نصوص مشروحة تشتمل على جوانب أخلاقية، ج2 ص611 وما بعدها.

[6]. ينظر: مسند أحمد، حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، رقم: 11975.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

من لوازم الإيمان صلة الرحم، وإكرام الضيف، وإحسان القول[1]، ويستخدم «أساليب التأثير والاستجابة، والالتزام في تربيته للصحابة، لكي يحول الخلق من دائرة النظريات إلى صميم الواقع التنفيذي، والعمل التطبيقي»[2].

ويكفي في بيان جلالة الصفات الخلقية لسيد المرسلين مدح الله له ووصفه بقوله: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: 4]، وقد أشار فخر الدين الرازي (المتوفى سنة 606هـ) في تفسيره لهاته الآية لما يدل على اجتماع الكمال الأخلاقي في النبي الخاتم، الذي اجتمع فيه من الأخلاق ما تفرق في الأنبياء قبله؛ مبينا أنه «إنما وصف خلقه بأنه عظيم، وذلك لأنه تعالى قال له: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: 90]، وهذا الهدى الذي أمر الله تعالى محمدا بالاقتداء به ليس هو معرفة الله لأن ذلك تقليد وهو غير لائق بالرسول، وليس هو الشرائع لأن شريعته مخالفة لشرائعهم، فتعين أن يكون المراد منه أمره عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بكل واحد من الأنبياء المتقدمين فيما اختص به من الخلق الكريم، فكأن كل واحد منهم كان مختصا بنوع واحد، فلما أمر محمد عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بالكل فكأنه أمر

---

[1]. ينظر: صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب إكرام الضيف، وخدمته إياه بنفسه، رقم: 6138.

[2]. السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، م، س، ص 117. ومن النماذج العملية التي توضح جانبا من الأخلاق النبوية، كما جاءت في السيرة المحمدية: العفو عند المقدرة؛ ومنه إعلانه صلى الله عليه وسلم عفوا عاما عن أهل مكة يوم الفتح، رغم أنواع الأذى الذي ألحقوه به وبدعوته وبالمؤمنين؛ حيث قال صلى الله عليه وسلم: «يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل فيكم؟» قالوا: خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر؛ ط. الثانية: 1375هـ/1955م، ج 2 ص 412. ومنها الوفاء وحفظ المعروف؛ كموقفه صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين حين جيء ضمن السبايا بأخته من الرضاعة: الشيماء بنت الحارث، فأكرمها، وبسط لها رداءه وأجلسها عليه، ثم منّ عليها، وردها إلى قومها؛ الرحيق المختوم، ص 424. وكقوله صلى الله عليه وسلم في أسارى بدر: «لو كان مطعم بن عدي حيا، ثم كلمني في هؤلاء النتنى لأطلقتهم له»؛ سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في المن على الأسير بغير فداء، رقم الحديث: 2689، وذلك وفاء لمطعم الذي دخل صلى الله عليه وسلم في جواره حينما عاد من الطائف، وكان من أشد القائمين على نقض صحيفة الحصار. ومنها الحرص على المؤاخاة والمحبة في الله بين المؤمنين؛ فمن أولى الدعائم التي اعتمدها صلى الله عليه وسلم في بناء الأمة وإصلاح أحوالها -بعد تثبيت العقيدة- تقريره للمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، «ومعنى هذا الإخاء أن تذوب عصبيات الجاهلية، وتسقط فوارق النسب واللون والوطن، (...). وقد امتزجت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة وإسداء الخير في هذه الأخوة، وملأت المجتمع الجديد بأروع الأمثال (...). وحقا فقد كانت هذه المؤاخاة حكمة فذة، وسياسة حكيمة»؛ الرحيق المختوم ص: 206-207، وينظر: محمد الغزالي، فقه السيرة؛ دار الكتب الحديثة، القاهرة؛ ط. الثامنة: 1408هـ/1988م، ص 192. فكانت تلك المؤاخاة توثيقا لروابط المحبة في المجتمع الإسلامي الجديد، بل إن التآخي العام بين المسلمين كان في المرحلة المكية، وهذا يؤكد أن أساس الأخوة هو رابطة الإسلام؛ فقه السيرة النبوية؛ للبوطي، م، س، ص 150.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

بمجموع ما كان متفرقا فيهم، ولما كان ذلك درجة عالية لم تتيسر لأحد من الأنبياء قبله، لا جرم وصف الله خلقه بأنه عظيم»[1]. لذا لما سئلت عائشة أمّ المؤمنين، عن خُلُقه، صلى الله عليه وسلم، قالت: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»[2].

وذلك يدل على الأهمية العظمى للجانب الأخلاقي في الهدي النبوي؛ مما يستدعي استصحاب المبادئ والقيم الأخلاقية في الحياة النبوية كما حفظتها مصادر هدي خير العباد، للاهتداء بها في جميع المجالات الحياتية الداخلية للأمة سواء منها الفردية أو المجتمعية، وفي العلاقات الخارجية مع سائر الأمم، وفي إطار تقديم الإسلام لها في صورته الأخلاقية المشرقة.

فتبين من كل ذلك أن منهج الهدي النبوي ارتكز على تصحيح وترسيخ العقائد والتصورات والأفكار، وإعادة تشكيل العقل بالارتكاز على بنائه المعرفي المتين، وتقويم العبادة مفهوما وأداء لتؤدي أدوارها في إسعاد النفس وتزكية الروح، وتحسين الأخلاق كمنظومة شاملة ومتكاملة تشكل أساس المجتمع السليم، وتستجيب لما تحتاجه الأمة الإسلامية - والإنسانية عامة- من مبادئ وقيم في مسيرتها الحضارية.

2 ـ استمرار الاهتداء بالمنهج النبوي باعتبار أهميته وبعده المقاصدي

إن مما يؤكد لزوم استمرارية الاهتداء بمنهج النبي الخاتم؛ ما له من أهمية كبرى في فهم شرائع الإسلام وأحكامه ومبادئه وقيمه، للتمكن من تنزيلها على الواقع المتنوع والمتغير بحسب اختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال، وما ينطوي عليه من أبعاد مقاصدية معززة ومؤكدة لهاته الأهمية.

أ ـ أهمية الهدي النبوي؛ حيث أنه لما كانت النبوة الخاتمة قد اشتملت على كل ما في النبوات السابقة من قيم وتشريعات ثابتة، وأضافت كل ما تحتاجه البشرية لإكمال مسيرتها في هذه الحياة؛ فإن ذلك يؤكد ضرورة دوام تحري النهل من نهج سيرة خاتم الأنبياء واتباعه والاهتداء بهديه، باعتباره الأنموذج الأمثل للإنسان الكامل، الذي تكوّن حياته المدخل التطبيقي لفهم وتنزيل أحكام الإسلام ومبادئه وقيمه في واقع الأمة أفرادا وجماعات ومؤسسات، والذي سيظل هديه الرصيد التاريخي الأول الذي يلزم أن تقتبس منه أجيال المسلمين المتلاحقة زاد مسيرتها واستمرارها؛ باعتباره الأنموذج الواقعي، الذي ينبغي أن يكون على نهجه سلوكنا وجميع تصرفاتنا وعلاقاتنا؛ تمثلا لما حفلت به الحياة النبوية

[1]. محمد بن عمر الرازي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت؛ ط. الثالثة: 1420 هـ، ج30 ص601.
[2]. مسند أحمد؛ من حديث عائشة، أرقام الأحاديث: 24079، 24773، 25284.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

من مبادئ وقيم في كل الشؤون والميادين والعلاقات الإنسانية؛ فتصير موجها عمليا لنهضة الأمة وإنجاز مشروعها الحضاري.

ولا غرو فذلك الهدي يشكل تطبيقا للقرآن، وتجسيدا واقعيا لأحكامه ومبادئه وقيمه، حتى أن كثيرا من آياته تفسرها وتجلي معانيها أحداث مرت بحياة النبي الكريم؛ ومن ثم فالاهتمام بدراسة وتحليل هديه يشكل قراءة بيانية للمقاصد والمضامين القرآنية، وتمثل بالتالي معرفةُ حياته وتعميق تصورنا له؛ المدخل الرئيسي والمنهج العلمي الأمثل للمعرفة والفهم الصحيحين للإسلام، والأسلوبَ الحضاري الأحسن لبيان حقائقه للناس جميعا.

ومما يبين أهميّة الهدي النبوي ما يحصل عن الإلمام به من تصور جامع للحقيقة الإسلامية متجسدة في الحياة النبوية، بعد ما يكون فهم تلك الحقيقة مبادئ وقواعد وأحكاما مجردة في الذهن؛ كما يتجلى ذلك في أهداف لخصها الدكتور البوطي في: - فهم الشخصية النبوية للرسول الكريم من خلال حياته، للتأكد من أنه لم يكن مجرد عبقري، ولكنه قبل ذلك رسول أيّده الله بوحي من عنده. - وجود صورة للمثل الأعلى في كل شؤون الحياة؛ كي يجعل المرء منها دستورا يسير عليه. - الإعانة على فهم كتاب الله ومقاصده؛ لكون كثير من آياته تفسرها الأحداث التي مرت بسيد المرسلين ومواقفه منها. - تحصيل أكبر قدر من الثقافة والمعارف الإسلامية، المتعلقة بالعقيدة والأحكام والأخلاق؛ باعتبار الحياة النبوية صورة مجسدة لمبادئ الإسلام وشرائعه. - وجود أنموذج لدى المربي والداعية؛ إذ أنه عليه الصلاة والسلام استعمل أجدى الطرق التربوية خلال مختلف مراحل دعوته[1].

وإن من أهم ما يجعل الهدي النبوي وافيا بتحقيق هذه الأهداف كلها؛ أنه شامل لكل النواحي الإنسانية والاجتماعية التي توجد في كيان الإنسان؛ من حيث إنه فرد مستقل بذاته أو من حيث إنه عضو فعال في المجتمع[2].

وذلك يدعونا للاهتمام بما جاء في الهدي النبوي باستمرار؛ لاستيعاب وفهم تعاليم الإسلام، والتبصر بالملامح المنهجية لذلك الهدي، وإدراك أبعاده ومقاصده، والإفادة من دُرره النفيسة، في تقويم وإصلاح أخلاقنا ومعاملاتنا في حياتنا الخاصة والعامة؛ بما يتضمنه من منهاج شامل لحياة الإنسان في كل جوانبها ومراحلها. بل إن البشرية جمعاء

---

[1]. فقه السيرة النبوية؛ للبوطي، م، س، ص: 15-16.

[2]. فالحياة النبوية تقدم لنا نماذج سامية للشاب المستقيم في سلوكه، الأمين مع قومه وأصحابه، كما تقدم النموذج الرائع للإنسان الداعي إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، الباذل منتهى الطاقة في سبيل إبلاغ رسالته، ولرئيس الدولة الذي يسوس الأمور بحذق وحكمة بالغة، وللزوج المثالي في حسن معاملته، وللأب في حنو عاطفته، وللقائد الحربي الماهر والسياسي الصادق المحنك، وللمسلم الجامع بين واجب التعبد لربه، والمعاشرة اللطيفة مع أهله وأصحابه؛ "فقه السيرة النبوية؛ للبوطي"، م، س، ص: 16.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110 ISSN:2958-8537 Issue: N14
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

في أمس الحاجة لدراسة هدي خير العباد؛ دراسة علمية تناسب آخر ما توصلت إليه الإنسانية في مجالات المعرفة المبنية على المناهج العلمية الرصينة؛ لإدراك ما تهدي إليه الحياة النبوية، باعتبارها تمثل النظام الإسلامي المتميز بكونه نظريا وتطبيقيا في نفس الوقت، نشأ بنشوء الشريعة الإسلامية وتطور معها زمن النبوة حسب نزول الآيات وورود الأحاديث إلى أن أكمل الله دينه، مشكلا نظاما متناسقا ومتكاملا بهندسة جديدة واقعية، خلافا للأنظمة الأخرى التي نشأت من نظريات تحتمل إمكان أو عدم إمكان تطبيقها.

وانطلاقا من الأهمية الكبرى -المشار إليها- لهدي خاتم الأنبياء؛ فإنه يجدر بالمسلمين أن يحرصوا على التأسي بخلقه العظيم واتباع نهجه والاهتداء بهديه؛ لكونه يشكل الأسلوب العلمي والشكل العملي الأمثل للعمل بكتاب الله؛ حتى يتحقق لهم ما نص عليه ابن القيم من العزة والكفاية والنصرة[1]، بالامتثال لأمر الله الذي أقسم أنه لا يؤمن من لا يُحكم نبيه في كل ما تنازع فيه مع الغير ثم يرضى بحكمه[2].

ومما يقرب إلينا إدراك الفائدة العظمى لمعرفة واتباع الهدي النبوي؛ أن نستحضر القيمة النفسية الكبرى للمعرفة التاريخية؛ ذلك أنه لا بد لكل فرد أن يفهم الحضارة التي ينتمي إليها مجتمعه، للتمكن من المساهمة في تنمية ذلك المجتمع وفق أصوله الثقافية والحضارية. وفهم حضارة الأمة رهين بفهم القواعد والأصول التي بنيت عليها، والعناصر التي

---

[1]. وأكد على أنه بحسب متابعته تكون الهداية والفلاح والنجاة. وأن الله سبحانه علق سعادة الدارين بمتابعته، وجعل شقاوة الدارين في مخالفته، فلأتباعه الهدى والأمن والفلاح والعزة والكفاية والنصرة والولاية والتأييد، وطيب العيش في الدنيا والآخرة، ولمخالفيه الذلة والصغار والخوف والضلال والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة، وقد أقسم صلى الله عليه وسلم بأن لا يؤمن أحد حتى يكون هو أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين؛ "ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد"، تحقيق: الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. 13: 1406هـ/ 1986م، ج 1 ص37: عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «فوالذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده» أخرجه البخاري في صحيحه؛ تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار طوق النجاة؛ ط. الأولى، 1422هـ؛ كتاب الإيمان، باب: حب الرسول ﷺ من الإيمان، رقم 14، ومسلم في صحيحه؛ تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت؛ كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من الأهل والولد، والوالد والناس أجمعين؛ رقم 70، كما أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجه.

[2]. حيث قال تعالى في ذلك: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: 65]، وقال: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} [الأحزاب: 36]؛ فقطع الله سبحانه التخيير بعد أمره وأمر رسوله، فليس لمؤمن أن يختار شيئا بعد أمره صلى الله عليه وسلم، بل إذا أمر فأمره حتم، وإنما الخيرة في قول غيره؛ لأن قول غيره سائغ الاتباع لا واجب الاتباع، ولو ترك أحد الأخذ بقول غيره لم يكن عاصيا لله ورسوله، فأين هذا ممن يجب على جميع المكلفين اتباعه ويحرم عليهم مخالفته، ويجب عليهم ترك كل قول لقوله؟ فلا حكم لأحد معه، ولا قول لأحد معه، كما لا تشريع لأحد معه؛ "زاد المعاد في هدي خير العباد"، م، س، ج 1 ص 37-38.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110 ISSN:2958-8537 Issue: N14
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

تكونت منها، وأهم الظروف التي لابست تكونها فيما مضى من العصور، ولا ريب أن ما من أمر يعد في تاريخ الأمة الإسلامية وفي تاريخ الإنسانية يوازي البعثة المحمدية، وما أسفرت عنه من بناء إنسان جديد وإخراج خير أمة للناس.

وكل ذلك يؤكد لزوم الاقتداء بشخص الرسول الأعظم الذي غير وجه التاريخ وخلد معاني الإنسانية؛ بما قدمه من بيان للقرآن وتطبيق عملي له؛ من خلال هديه وما ينطوي عليه من المقاصد والأبعاد والدروس والعبر، التي من شأن الوعي بها المساعدة على تفاعل الأمة مع المبادئ والقيم والأحكام الشرعية التي يتضمنها ذلك الهدي في مختلف مجالات الحياة، مما يخلق نفوسا جديدة، تحرص على العلم النافع والعمل الصالح، في سبيل مستقبل يعمه الخير والعدل.

ب ـ البعد المقاصدي في منهج الهدي النبوي؛ حيث تتجلى الأهمية الكبرى لمنهج الهدي العام لأشرف المرسلين، في حياته الخاصة والعامة، في كونه يعتبر إطارا عمليا للمقاصد القرآنية؛ كما هو واضح من استقراء الأحداث والمواقف والدروس والعبر التي تزخر بها سيرة هذا النبي العظيم؛ حيث يظهر البعد المقاصدي الإسلامي، من جوانبه العملية التي تمثل أهم ثمرات وتجليات عمقه التعبدي، في المنهج النبوي المُضَمَّن في مواقفه وتوجيهاته عليه الصلاة والسلام، المتمثلة للقيم الإسلامية، والواقعة في دوائر الرحمة والعدل والتيسير، وغيرها من المقاصد الإسلامية والقيم العليا، والمستهدفة لتنمية كفاءات الأمة أفرادا وجماعات، والتحفيز على توظيفها في مناحي الحياة مساهمة في تحقيق مصالح العباد.

وفي هذا السياق نؤكد على أنه انطلاقا من استقراء المصادر التي يستقى منها الهدي النبوي؛ يتضح فيه بجلاء البعد المقاصدي، «فكل ما صدر عنه صلى الله عليه وسلم يقع في دوائر التيسير، والرحمة، والعدل، ورفع الآصار والأغلال، ويهدف إلى حفظ مصالح الخلق المتعلقة بحياتهم الفردية والجماعية والإنسانية، وحياتهم المعاشية والروحية؛ فمنهجية الرسول عليه الصلاة والسلام (...) مصبوغة بالمنطق المقاصدي الهادف.

فكل جهده يجب أن يدرس في إطار مقاصد الشارع؛ فاعتماده على منهج التربية والتكوين والتدريب على الاجتهاد (...)، إنما كانت غايته الأساسية توفير الجو والوسط، الذي تنمو فيه "العقلية المقاصدية" المتدبرة لخطاب الله، والتي تسبر أعماق البلاغ الرباني المبين، وتحمل رسالة القول الثقيل؛ حيث كان عليه الصلاة والسلام "مرجعية مقاصدية" توجه الناس إلى الأسرار، والمقاصد التي حملها التكليف الرباني للخلق.

فعندما نقوم بدراسة سنن نبينا (...) علينا أن نلاحظ المسحة المقاصدية، التي لم تكن علما صناعيا ينكب فيه عليه الصلاة والسلام مع صحابته الكرام على طاولات البحث والدرس والتحصيل المدرسي، بل كانت سلوكا وروحا تسري

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

في عروق الناس، وتغذي جنين الحضارة برسالة الإنسان في الأرض، وتريه حقيقة وجود الكتاب والكون والناس، وتبين له أن كل شيء وجد ليحقق مصالح الناس في الدارين»[1].

وبهذا يتبين أنه ينبغي ملاحظة الصبغة المقاصدية العامة، التي كانت سلوكيات عملية سارية في الحياة النبوية، باعتبار أن منهج الهدي النبوي كان من غاياته الأساسية تحقيق بناء الإنسان وفق مقومات الشخصية المسلمة، انطلاقا من العناية بتنمية العقلية المقاصدية القادرة على تدبر البلاغ الرباني، ابتغاء التمكن من حمل أمانة التكليف الشرعي، واستمرار القدرة على أدائها بعد وفاة النبي الخاتم؛ مما يدعو إلى تنبه المهتمين بمختلف العلوم الإسلامية لدراسة الجهود النبوية ضمن إطار المنظور المقاصدي، الذي كانت تلك الجهود تدور في فلكه، باعتباره ضابطا للمذهبية الإسلامية عامة ولحركاتها التجديدية والاجتهادية خاصة.

وأخيرا نؤكد أن حسن الاستمداد من هدي المصطفى والحرص على الاهتداء به باستمرار؛ من شأنه المساهمة في ترسيخ مرتكزات منهج هديه، وبعث وتفعيل ما ينطوي عليه من أبعاد مقاصدية؛ بالاستفادة منه في حياتنا الخاصة والعامة، وتوظيفه في مختلف النظم الإسلامية؛ من خلال إفادة العلماء منه في بناء مناهجها القويمة، واستنارتهم به في سبيل تنزيلها في الواقع، وما يتطلبه هذا الواقع من الانضباط بالأحكام الشرعية العملية، والارتكاز على ما لا بد له من القيام عليه من القيم الإسلامية العليا، في أفق بناء مجتمع صالح، بما يكفل له تحقيق أسباب سعادته، ويمَكنه من أداء وظائفه في الحياة على أحسن وجه، ويؤهله بالتالي لتشييد الحضارة.

- رابعا: تعزيز وتوسيع أدوار العلماء

إن ختم النبوة يدل على توقف تصويب انحراف الإنسان من السماء، ومعلوم أن القوامة على الحق لا بد أن تكون مستمرة، تحقيقا لسنة الله في الخلق القاضية بالتدافع بين الصلاح والفساد؛ لذلك جعل الله التصويب في أمة الرسالة الخاتمة ذاتيا يمارس في ضوء ثوابت الوحي وهداياته، وجعله تكليفا شرعيا مستمرا للأمة، ومناط خيريتها؛ فلا معنى لاستمرار هذه الرسالة، الذي يعني بقاء الحق ودوام حراسته والقيام به، إذا لم يستمر التصويب والتجديد، الذي يشكل محور أدوار العلماء ومهامهم الرئيسة.

[1]. برغوث عبد العزيز بن مبارك، المنهج النبوي والتغيير الحضاري، كتاب الأمة 43؛ قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط1، (رمضان 1415هـ/فبراير 1995م)، طبعة خاصة بالمغرب؛ منشورات الفرقان، الدار البيضاء؛ (شوال 1415 هـ/مارس 1995م)، ص49-50.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110 ISSN:2958-8537 Issue: N14
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

فإذا كان الأنبياء قد بلّغوا الدين وحملوا الرسالة؛ فإن العلماء ورثتهم و«هذا من أعظم المناقب لأهل العلم؛ فإن الأنبياء خير خلق الله فورثتهم خير الخلق بعدهم، ولما كان كل موروث ينتقل ميراثه الى ورثته؛ إذ هم الذين يقومون مقامه من بعده، ولم يكن بعد الرسل من يقوم مقامهم في تبليغ ما أرسلوا به إلا العلماء كانوا أحق الناس بميراثهم، وفي هذا تنبيه على أنهم أقرب الناس إليهم»[1]. ومن مهام العلماء خاصة بعد توقف النبوة؛ حفظ ذلك الميراث وتبليغه بأمانة.

ولذلك، فإن قيامهم مقام الأنبياء يعتبر من عدة جهات منها؛ الوراثة في علم الشريعة بصفة عامة، وإبلاغها لعموم الناس، وخاصة تعليمها للجاهلين بها، إضافة إلى بذل جهدهم في استنباط الأحكام. كما أن من مهامهم النضال في سبيل ذلك الميراث بمختلف الوسائل؛ ومن ذلك: إزالة الانحرافات الطارئة عن الدين، ودفع انتحالات المبطلين الذين يدخلون فيه ما ليس منه، وتقويم تأويلات الجاهلين به[2]. وبهذا يتجلى أن أدوار العلماء بعد ختم النبوة، اتسعت وتجاوزت المستوى الذي كانت عليه مسؤوليتهم في عصور الأنبياء السابقين؛ من تبليغ الدين والدعوة إليه في إطار محدود، إلى مستويات ومهام متعددة متفرعة عن تلك المهمة الكبرى، التي نسجل فيما يتعلق بها، خاصة بعد ختم النبوة، أنه إذا كان المسلمون عامة مطالبين بالقيام بها حسب الإمكان وفي إطار المجال المتاح؛ فإن العلماء مطالبون أكثر من غيرهم بأداء هذه الرسالة ليعينوا الناس على تحقيق الغاية من خلقهم؛ وعلى رأس ما يقومون به لأجل ذلك: ترسيخ توحيد الله في النفوس، وبيان كمال الدين، ومقاومة البدع.

على أن حقيقة هذه الدعوة لا تتحقق وتكتمل إلا في إطار عملهم وفق منهج إصلاحي شمولي الأبعاد متنوع المجالات، يسعى إلى أن يكون الناس أقرب إلى صلاح الحال في حاضرهم ومآلهم. وهذا يتطلب علماء يدركون مقاصد الخلق والوجود الإنساني، وسنن الله في الخلق والتطور البشري، متشبعين بفقه نصوص الوحي؛ بإدراك معانيها وأحكامها، واستيعاب مقاصدها، متمكنين من استنباط أنوار الهداية منها للإنسان في مسالك الحياة المتشعبة، مهتدين في ذلك بالمنهج النبوي في الدعوة والإصلاح. مع ملاحظة فرق أساسي بينهم وبين الأنبياء؛ وهو أنهم غير معصومين من الخطأ، لذا فحسبهم أن يغلب صوابهم على أخطائهم، ليقوموا بواجب الدعوة والبلاغ والإصلاح، ويصح الاقتداء بهم.

---

[1]. ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، بيروت: دار الكتب العلمية، ج1، ص66، وقد وردت وراثة العلماء للأنبياء في حديث فضل العلم وطلبه؛ حيث جاء ضمنه قوله، صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ»؛ جامع الترمذي؛ رقم الحديث: 2682.

[2]. كما يشير إلى هذا الحديث النبوي الذي ورد بروايات منها: «يَرِثُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَحْرِيفَ الْغَالِينَ»؛ البيهقي، السنن الكبرى، كتاب الشهادات، باب ما جاء في شهادة الأخ لأخيه، ج10، ص208.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

وتتجلى أهمية الوراثة النبوية في أن من شأن تمادي الزمان أن يراكم الشوائب على نصاعة وجه الشرائع، ولما كان الإسلام هو خاتمة الأديان، وأن نبيه هو مسك ختام الأنبياء المبعوثين إلى الناس، كان من الحكمة الالهية أن هيأ للأمة والإنسانية ما يضمن سدادها عبر الأزمان، إذ أودعها كتاب ربها وسنة نبيها، وأضفى على العلماء الصالحين صبغة الوراثة الروحية. فالوصي المؤتمن على الأمة هو الكتاب والسنة، والعالم المجدد الذي أعلن الرسول، صلى الله عليه وسلم، أنه يبعث على رأس كل قرن[1].

ذلك أن الكتاب والسنة في عهد الرسالة تجسدا في شخص النبي، صلى الله عليه وسلم، وبرحيله بقيت ريادة الأمة وقيادتها منوطة بهذين الأصلين، ولما كانت عُرى الإسلام في النفوس عرضة للفتور والخفوت بمرور الزمن، كانت الحاجة ملحة إلى ضمان بعثها في النفوس مرحليا، ومن هنا كانت أهمية العلماء المجددين. ومما لا ريب فيه أن العالم المجدد المعني بهذه المهمة الجليلة، يكون مستوفيا لكفاءات علمية وفضائل خلقية وخبرات دعوية، ترقى به لأن يمثل صاحب الرسالة، وأن يكون بحق وريثه. وبهذه الوظيفة التجديدية تستمر الوظيفة النبوية التي ينهض بها العلماء الربانيون إلى قيام الساعة، بعد أن سد الله باب الرسالات السماوية. وهذا يدل على انفتاح الأفق في وجه الإنسانية كي تعيش الحياة الكريمة ضمن حدود الإسلام؛ بما ضمن الله من أسباب التنوير والهداية للناس على أيدي العلماء الوارثين للعلم النبوي[2].

فقد سارت النبوات والرسالات على طريق انتهى بالإنسان إلى بلوغ مكانة عقلية وروحية عالية، بحيث لم يعد هناك حاجة لتلك الرسالات؛ إذ انتهى التدرج الالهي بالبشرية إلى حد تأهل فيه العقل الإنساني لأن يتلقى الترشيد من نصوص الكتاب والسنة ومن تنويرات العلماء الحاملين لإرث النبوة؛ لتصحيح الزيغ والضلال الديني بوسائل الترشيد الإيماني، والتذكير بتعاليم الدين الحق. فالإنسانية بعد بعثة النبي، صلى الله عليه وسلم، باتت على قوامة روحية تسترشد فيها بذاتها، وباستنارتها العقلية إلى طريق الحق. وبات الجنوح عن مبادئ الدين ينهض بتقويمه العلماء، وصار ظهور المجددين في الأمة الإسلامية بمثابة البعثة، لأن الغاية من جهودهم هي إحياء الأمة، وإصلاح حالها[3]. «فما كان يعمله

[1]. قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»؛ سنن أبي داود؛ رقم الحديث 4291.

[2]. واقع الإنسانية في ما بعد عصر النبوة مدخل للحديث عن دور العلماء ورثة الأنبياء؛ بحوث المؤتمر العالمي العاشر عن فكر بديع الزمان النورسي، م، س، ص237-238.

[3]. المصدر نفسه، ص257-258.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

الأنبياء في السابق حيث كانوا يأتون بخطة خاصة لمجتمع معين من قِبل الله، يجب في مرحلة الإسلام أن يفعله العلماء وقادة الأمة، مع فارق واحد هو أن العلماء والمصلحين يخططون البرامج الخاصة ويضعونها قيد التنفيذ بالاستفادة من مصادر الوحي التي لا تنفد»[1]، ابتغاء الاجتهاد في الشريعة وتحقيق مدلول تجديد الدين.

ولعل الموضوع الأساس الذي تتمحور حوله قضية الاجتهاد بما تتضمنه من التجديد والتغيير لأجل الإصلاح والنهوض، هي إدراك قضية الخاتمية وخلود الرسالة الإسلامية، ومن هذا المنطلق يمكننا الربط بين الاجتهاد والخاتمية، من جهة توقف التصويب عن طريق الوحي، وربطه بقيم الكتاب والسنة، فتجديد التدين أصبح تكليفا منوطا بعلماء الأمة في كل عصر؛ لامتلاكهم معيار التصويب الموجود في الأصلين الأولين للتشريع، القادر على تقويم الواقع. فكان من أبرز لوازم الخاتمية صفة الخلود لرسالة الإسلام، وتحقيق هذا الخلود لا يكون إلا بالاجتهاد والتجديد، الذي يعتبر أيضا من مقتضياته ولوازمه؛ بالنظر في تجريد النص من قيد الزمان والمكان والمناسبة، واستنباط الأحكام في ضوئه، لتقويم الواقع المتجدد، ومعالجة مشكلاته وقضاياه في كل زمان ومكان.

وأما ما يقع من محاصرة لمبدأ الخلود، بما يجعله شعارا مفقودا في الواقع؛ فإنه يكون بخطأ في الفهم وحرص في غير محله وتخوف من الاجتهاد لدى بعضهم، لكنه يكون بمكر عند بعضهم الآخر؛ في محاولة لإخراج الإسلام من الحياة وفصله عن واقع البشر. علما أن خلود النص لا يعني خلود فهمه، وعصمة الدين لا تعني عصمة التدين، وثبات النص لا يعني جمود الفهم، وإنما يعني ذلك خلود المعيار والمقياس الذي تُقاس به حالة المجتمع لمزيد من التقويم والتقدم، ويعاير به الواقع لاكتشاف جوانب الخلل والتخلف لمعالجته. فمن تكريم الله للإنسان أنه حض على الاجتهاد والتجديد المستمر في فهم النص الخالد، تمييزا بين ثبات النص وجمود الفهم.

فحين يتوقف الاجتهاد ويغيب التجديد، يسيطر الجمود وتضيق المنافذ وتتعطل المصالح المتجددة، لعدم وجود فقه جديد، ويكون ذلك مسوغا للتفلت من شرائع الدين وسبيلا لوصمه بالرجعية وعدم صلاحيته للحاضر؛ ذلك أن فهم النص يجمد بالعجز والغباء، وينحرف بالتأويل الفاسد، ويغلو بالانتحال الباطل. وقد جعل الإسلام التجديد في فهم النص بديلا لنسخه وتغييره، وهذا المقصد لا يتحقق في حالة الجمود والتقليد؛ لأن توقف الاجتهاد وتجديد الفهم للنص بحسب متغيرات الواقع، والاكتفاء بالاجتهادات السابقة، هو نقل للقدسية من الوحي إلى الفهم البشري لعصر معين، وهذا يقود إلى التعطيل لخلود النص والمحاصرة لقيمه ومقاصده وعطائه وامتداده. خلافا لما يمنحه استمرار الاجتهاد من الخصوبة

[1]. ختم النبوة، م، س، ص24.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

والمرونة لتعاليمه وأحكامه؛ لمعالجة قضايا الناس في مختلف العصور؛ حيث يأخذ المسلمون في كل عصر نصيبهم من فهم الإسلام.

وفي هذا الإطار يجدر التنبيه على أن الإخبار بالعالم المجدد الذي يبعث على رأس كل قرن، لا يجوز أن يقتصر فهمه على الإعلام بما سيكون، وإنما له أبعاد أخرى؛ يأتي في مقدمتها بُعد تكليفي يتضمن حمل الأمانة واستشعار المسؤولية عن هذا الدين، والاجتهاد لاستمرار عطاء النص الشرعي؛ فهو يطمئن ويكلف في الوقت نفسه بديمومة الاجتهاد وتجديد الدين في كل قرن. وبدهي أن التجديد لا يعني التبديل للنصوص، وإنما يعني العودة إلى التلقي من الينابيع الأولى، ونفي ما يمكن أن يلحق بالتدين من علل ناشئة من غفلة الإنسان وجهله وجموده على فهوم جاءت لمعالجة مشكلات عصور ماضية، لأن صوابية الاجتهاد لعصر معين لا تعني صوابيته لكل عصر[1].

لذا فالاجتهاد والتجديد إنما هو فهم جديد للنصوص في ضوء الواقع. على أنه في نفس الوقت لا يعني القفز من فوق اجتهادات مختلف العصور، أو التقليل من قيمتها، خاصة أن كثيرا منها خضع لاختبار الزمن والواقع التطبيقي وأثبت جدارته؛ لذا لا بد من استيعابها واستصحابها في العودة إلى النصوص، وإلا فإن إسقاطها من الاجتهاد، فيه من الخطورة ما يعدل فعل من نقل القدسية إليها واكتفى بها عن النص، وكأنه اعتبر أن الله طالب العقول أن تعمل في عصر وأذن لها أن تجمد في غيره، فوقع بمذهب من يدعي أن الإسلام انتهت صلاحيته لظرفه التاريخي ومكانه الجغرافي![2].

لذا فإن ختم النبوة لا يعني القطع مع مصدرية الوحي في مسيرة الإنسان، إنما هو تغيير في منهجية العلاقة مع الوحي. فختم الرسالات ومباشرة الإنسان للاستخلاف من غير رسل ليس مصادرة لسنة الله في التاريخ، وليس إعلانا عن عدم حاجة الإنسان إلى الإرشاد الإلهي، إنما هو تحول في علاقة الإنسان بالغيب، وتكليف جديد كلف به الإنسان وهو اكتشاف شرع الله وأمره عبر منهجية جديدة، وهي الاجتهاد في فهم النص الشرعي، لذلك كان من وظائف الرسول الخاتم تعليم الناس الكتاب والحكمة، وبهذه الأبعاد اكتمل الدين، وتحددت معالم الرسالة الإلهية في الكون، وأصبح الماضي الديني نموذجا للإنسان يعتبر من خلاله، ويستمد من سننه ومما أبقاه الله له من موروث البشرية الروحي ما يستعين به في اجتهاده؛ بحثا عن الحق وبناء للحاضر وتطلعا إلى المستقبل.

---

[1]. عبد المجيد السوسوه الشرفي، الاجتهاد الجماعي في التشريع الإسلامي، كتاب الأمة 62، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط1، ذو القعدة 1418ه (طبعة خاصة بالمغرب؛ منشورات الفرقان، الدار البيضاء: (محرم 1419ه/ماي 1998م)، تقديم: عمر عبيد حسنة، ص12-18.

[2]. الاجتهاد الجماعي في التشريع الإسلامي، م، س، ص35-36.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110 ISSN:2958-8537 Issue: N14
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

وقد أدرك المسلمون في عصر الرسالة طبيعة التحول، من خلال وعيهم بما أهلهم له القرآن، وأن الرسالة مستمرة، وأنها أصبحت أمانة في أعناق المسلمين إلى قيام الساعة. وتجسدت مسؤوليتهم عند وفاة النبي، صلى الله عليه وسلم، تجربة نظرية وعملية ونموذجا حيا للانتقال إلى مرحلة ختم النبوة، انطلاقا من كون سنته بيانا للقرآن وسيرته تحقيقا للقيم التي جاء بها، وما كان يدرب أصحابه على الاجتهاد تأهيلا لهم لما بعد وفاته[1].

وبذلك تأهل علماء الأمة للقيام بوظيفة الأنبياء المبلغين المتمثلة في نشر وتبيين الشريعة، وتطبيق أصولها العامة، حيث انتفت الحاجة إلى الأنبياء المبلغين الذين كانوا دعاة ومبلغين لشرائع الأنبياء من أصحاب الشرائع، وأصبح علماء الأمة في الإسلام هم الذين يقومون بتلك المهمة؛ بما يبْلُغون من العلم والرشد الذي يُمَكنهم من الاجتهاد في تفسير الوحي وتبيينه، وإرجاع كل مسألة إلى الأصل الخاص بها في الظروف الزمانية والمكانية المختلفة. وبذلك يكون الاجتهاد قوة محركة للإسلام بعد ختم الرسالة، ذلك الختم الذي يدفع الإنسان ويؤهله للتخرُّج من مدرسة الوحي؛ فلا يحتاج إلى وحي جديد، ويتمكن من حل مشكلاته بدراسة ما جاء في القرآن والسنة والاجتهاد في فهمهما.

ولعل التحفيز على الاجتهاد إنما جاء من جهتين: الأولى؛ أن الله لم يقصد أن ينيطه بأناس بأعيانهم تكون لهم مراكز ومواقع اجتماعية، فتتشكل طبقة من رجال الدين أو حملة الكتاب المقدس، على غرار ما أصاب الأمم السابقة، الذين احتكروا فهمه وتفسيره، وإنما فتح باب الاجتهاد على مصراعيه، وجعله عاما يلجه كل قادر عليه. والثانية؛ أن الله لم يثب على الخطأ في أي عمل من أعمال الإنسان إلا في مجال الاجتهاد، فإن هذا الخطأ لا يقع ضمن دائرة التجاوز والعفو وإنما يرقى إلى مستوى الأجر والثواب، وفي ذلك كسر لحاجز الخوف.

على أنه يَرِدُ هنا أننا لو فتحنا باب الاجتهاد لكل إنسان مهما كان كسبه الشرعي وقدرته العقلية، فسيدخل من هذا الباب مَن يُحسن ذلك ومَن لا يحسنه، الأمر الذي يؤدي إلى الاستخفاف والعبث بالأحكام الشرعية، لذا فإن التخصص والاقتدار واستجماع المؤهلات المطلوبة، والإحاطة بعلم القضايا المطروحة، هو الوضع الطبيعي لكل من يفكر في اقتحام هذا المجال، حتى لا يُفتي الناس بلا علم، فيَضِلّ ويُضِلّ[2].

وبالإمكان تقسيم الاجتهاد إلى فكري وفقهي تشريعي، وعلى الرغم من أن الاجتهاد بأشكاله هو فقهي بالمصطلح العام للفقه، وفكري أيضا لأنه جاء ثمرة للتفكير وإعمال النظر، فإن هذا التقسيم يمكن أن يساهم بتحريك الاجتهاد ويخفف

[1]. منهجية الرسالات ودلالات ختم النبوة؛ مجلة إسلامية المعرفة، م، س، ص74-75 بتصرف، وموقع الملتقى، م، س.
[2]. الاجتهاد الجماعي في التشريع الإسلامي، م، س، ص19-21.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

من عقدة الخوف التي تشل حركتنا الذهنية. فالاجتهاد الفقهي هو استنباط العالم المجتهد للأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية في الكتاب والسنة، مع ضرورة إعادة النظر في الشروط التي وضعت لأهلية الاجتهاد، في ضوء ما توفر من تقنيات ومعلومات ووسائل حفظ واسترجاع. أما الاجتهاد الفكري فهو الساحة التي تسع المسلمين جميعا، بعد أن تتوفر لكل واحد منهم ثقافة ورؤية إسلامية شاملة للحياة، تشكل قدرا مشتركا لكل الاختصاصات المعرفية وضوابط منهجية للامتداد بالاجتهاد، والنظر لكل اختصاص في ضوء القيم الإسلامية، وإطلاق العقل المسلم من عقاله ليتعامل مع النص وينتج نظريات تربوية واقتصادية وسياسية وإعلامية وإدارية، فتتبلور رؤى فكرية ذات مرجعية إسلامية ترتقي بالأمة وتمكنها من حمل رسالتها وإلحاق الرحمة بالناس.

ولنا في ذلك تجربة تاريخية عندما تبلور الفكر الإسلامي في عصر ازدهاره، وجاء من ثمرات النظر العقلي في كتابي الوحي والوجود، فكانت المرة الأولى في تاريخ الحضارة الإنسانية أن تبلورت علوم الدنيا مصطبغة بالدين، ونشأت حول نصوص الوحي مجالات معرفية وفكرية تمثلت فيها إبداعات الإنسان المسلم في مختلف العلوم النظرية والتطبيقية، تحقيقا لأسباب خلافة الإنسان في عمران الأرض وفقا لمقاصد الشريعة[1]، وتجسيدا لمبدأ خلود الإسلام بالاجتهاد والتجديد في تنزيله على الواقع.

وإذا كان الاجتهاد في الشريعة من مهام العلماء وبالأهمية التي ذكرنا؛ فقد بين الشاطبي أن المجتهد المفتي قائم في الأمة مقام النبي، صلى الله عليه وسلم، بمعنى أنه نائب عنه في تبليغ الأحكام، واعتبر هذا العالِم شارعا من وجه؛ لأن ما يبلغه من الشريعة إما منقول عن صاحبها، وإما مستنبط من المنقول؛ فالأول يكون فيه مبلغا، والثاني يكون فيه قائما مقامه في إنشاء الأحكام، بل القسم الذي هو فيه مبلغ لا بد من نظره فيه من جهة فهم المعاني من الألفاظ الشرعية، ومن جهة تحقيق مناطها وتنزيلها على الأحكام، وكلا الأمرين راجع إليه فيها؛ فقد قام مقام الشارع أيضا في هذا المعنى. وعلى الجملة؛ فالمفتي مخبر عن الله كالنبي، وموقع للشريعة على أفعال المكلفين بحسب نظره كالنبي، ونافذ أمره في الأمة بمنشور الخلافة كالنبي[2].

على أن هذا الكلام ينبغي أن لا يؤخذ على إطلاقه؛ باعتبار أن المجتهد المفتي ليس شارعا واجب الاتباع مطلقا، وإلا للزم الناس اتباع فتاوي وأقوال المجتهدين جميعا في نفس المسألة على اختلاف اجتهاداتهم. فالبشرية كانت إلى

---

[1]. المصدر نفسه، ص28-30.

[2]. الشاطبي، الموافقات، تحقيق: أبي عبيدة آل سلمان، دار ابن عفان، ط1، (1417هـ/1997م)، ج5، ص253-257.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110 ISSN:2958-8537 Issue: N14
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

زمان النبي، صلى الله عليه وسلم، تتلقى توجيهات الهداية من الأنبياء والرسل المعصومين والمؤيدين بالوحي، وبوفاته صارت مهمة تبليغ الدين للعلماء، إلا أن أيا منهم لا يكون معصوما من الخطأ. فليس للعلماء في مجال الحقل الديني في الإسلام إلا فضيلة العلم والاجتهاد والموعظة بالحكمة وما ذكرنا من أدوارهم آنفا، وتلك هي الفريضة التي يقوم بها من يقدر عليها من ورثة الأنبياء. لذا لا بد من التنبيه على «أمور ثلاثة نحن نأباها ونجعل اجتنابها أساس الاجتهاد في الإسلام، ونرى المتوسعين لا يحذرونها؛ وهي الذهاب إلى حد أن يكون المجتهد مشرعا، أو إلى أن يكون مجتهدا من ليس أهلا للاجتهاد، أو إلى أن يفسر النصوص بما لا تحتمله»[1].

ومن ثم نسجل أن إلغاء السلطات الدينية عبر الخاتمية له دلالة هامة وعميقة في التاريخ؛ تتمثل في إلغاء الإطلاق الديني والعلمي، بمعنى أن الإنسان لم يعد، بعد ختم النبوة، يمتلك الحكم بصفة مطلقة في المسائل الاجتهادية سواء على المستوى الديني أو العلمي، فلم يعد أحد يستطيع أن يطلق حكما باسم الله ولا أن يدعي أنه يعلم الحقيقة المطلقة باعتبارها المعنى النهائي، كما أنه لا يستطيع أحد أن يزعم أن علمه الاجتهادي بالطبيعة هو حقيقة الطبيعة المطلقة، هذا النفي للإطلاق يفيد امتناع الاستناد إلى غير الاجتهاد النسبي المعتمد على العقل، بما هو ملكة فطرية نسبية مدركة للمعطيين الطبيعي والتشريعي، وهاتان الحقيقتان؛ الطبيعية والشرعية، لا تدركان بذاتهما بل بالإضافة إلى المجتهد الذي لا يمكن أن يدعي أنه سلطة روحية مطلقة، وطابع علم كهذا يلازمه وصف النسبية التي هي طبيعة الإنسان. فختم النبوة الذي ألغى السلطات الدينية، والإطلاق في الفكر الديني والإنساني أسس لسلطة بديلة مثلت المهمة التي كلف بها الإنسان؛ وهي الاجتهاد في شؤون الدين والدنيا بشروطه العلمية. وما دام الاجتهاد جهد مفتوح لمن تأهل له من البشر فنتيجته نسبية، وبالتالي فلا عصمة لأي من المجتهدين، ولم يبق غير إجماعهم بديلا عن السلطة الروحية أو العلمية المطلقة؛ وذلك باعتبار انتفاء عصمة أي منهم عن الخطأ. والإجماع المستند إلى أدلة اجتهادية ظنية هو كأي اتفاق بين العلماء في أي علم من العلوم. على أن سلطة الإجماع تبقى هي البديل العملي عن أي سلطة مطلقة، وبالأخص السلطة الدينية في الإسلام التي يشكل رفض الإسلام لها عبر عقيدة ختم النبوة أهم مبدأ يمكن أن يفتح أفق الإنسان نحو المستقبل، ويوسع حرية حركته في الكون من أجل البناء وإقامة العدل وتحقيق الاستخلاف في الأرض[2].

---

[1]. مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، بيروت: دار إحياء التراث العربي/لبنان، ط2، (1401هـ/1981م)، ج4، ص356.

[2]. منهجية الرسالات ودلالات ختم النبوة؛ مجلة إسلامية المعرفة، م، س، ص71-72 بتصرف، وموقع الملتقى، م، س.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

ـ خامسا: الاتجاه نحو عالمية الحضارة

يذكّر القرآن بما كان عليه الناس من وحدة على الحق، ويقرر أن الاختلاف الذي أعقب وحدتهم لم يكن عبثا وإنما يرتبط بقضاء الله ومشيئته في ابتلاء الإنسان واستخلافه في الأرض، لذلك لم يعقب ذلك الاختلاف تدخل إلهي يوحد الناس؛ قال تعالى: {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [يونس: 19]، وإنما بعث فيهم الأنبياء ليرشدوهم بإرادتهم إلى الأمة الواحدة التي تجمع الأنبياء في الخط الشهودي الذي كان عليه الناس؛ قال تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ} [البقرة: 213].

فهذه «الأمة الواحدة التي ينضوي تحتها جميع الأنبياء والرسل عبر التاريخ، بدءًا من أولهم وانتهاءً بخاتمهم، إنما يربطها نسق النبوة الواحد والدين الحق الذي جاءوا به، وباكتمال الدين وختم النبوة يكون مفهوم الأمة الواحدة قد اكتمل، وعلى أساسه يكون ختم النبوة بناء لأمة الأمم، وإلغاء للأمم العنصرية التي انحرفت بالأمة الواحدة، فجاء ختم النبوة ليقطع مع المفهوم السائد للأمم ويؤسس لأمة جديدة»[1].

بهذه القراءة القرآنية للنبوة أمكن للعرب المسلمين المؤسسين للحضارة أن يعقلوا الماضي برؤية توحيدية ترى في تاريخ البشرية من الأواصر والصلات أكثر مما ترى من العوائق والفوارق، وأن ينفتح أمامهم مستقبل العالم بصورة تجعله عالما للإنشاء والبناء، خلافا للعالم القديم من حيث الطبيعة والمشاغل وآليات الحراك، وأن يعتبروا الإنسان فعلا متواصلا يبرز القدرات وينجز الحضارة، وأن يتمثلوا طبيعة التحول الكبير خلال وظيفة الذين جعلهم الله خلفاء له على الأرض ببناء حاضرهم اعتمادا على إرث النبوة، الذي لا يصبح خالدا إلا إذا صار حسا تاريخيا ونظاما فكريا وأسلوبا في مباشرة الحياة.

وهكذا تحول مفهوم الدين، عبر هذا الوعي الجديد، إلى تصور يبني حضارة عالمية تعتمد حرية الإنسان. وكان ضروريا لإنجاز هذا التحول من الأخذ بعقيدة ختم النبوة التي ما كانت لتعني شيئا والإنسان مقهور في عالم مبعثر، الفعل البشري فيه لا يفضي إلى تراكم قادر على إحداث أي تطور أو تغيير. وما كان للعرب المسلمين المؤسسين أن يلجوا عصرا جديدا إلا بإقرار عقيدة ختم النبوة ومنهجها في نظام فكري جامع. فكانت بذلك من المبادئ الكبرى في

[1]. منهجية الرسالات ودلالات ختم النبوة؛ مجلة إسلامية المعرفة، م، س، ص68، وموقع الملتقى، م، س.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110 ISSN:2958-8537 Issue: N14
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

التاريخ البشري التي تتمكن من تقويض عالم قديم باعتماد قراءة جديدة للكون والتراث تفضي إلى مواقف جديدة وعالم ومجتمع مغايرين.

وبهذا التصور أمكن للنص القرآني أن يؤسس وعيا جديدا فيفتح طرقا واسعة للمستقبل، مغيرا من غاية النبوة مقرا بأن الرسول الخاتم طرح على العالم تصورا دينيا عالميا خالدا. فختم النبوة لم يقتصر على جعل الأنبياء على صعيد واحد فقط، بل فتح في نفس الوقت باب العالمية على مصراعيه؛ إذ إنه كان إيذانا ببداية دورة تعارف الشعوب والأمم؛ في انسجام مع ما نص عليه القرآن: {وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} [الحجرات: 13]؛ دورة امتلاك الحس التاريخي المبدع الذي جعل من المسلمين قادة وعلماء ومفكرين. فلم يقتصر انفتاحهم على الآخرين عند إبلاغ الدين، بل تميز باستحداث حركة علمية وفكرية خاضت غمارها شعوب وقبائل ما كان لها أن تفعل شيئا من ذلك لولا روح الثقافة الإسلامية[1].

فكل الحضارات البشرية كانت تجد في حضارة الإسلام صدرا رحبا، جال فيها العقل الإسلامي فمحص وعرف وانتقى. وهذا الموقف الحضاري المتبصر المرن الموزون حقق مردوده الإيجابي الفعال ليس على مستوى الحضارة الإسلامية فحسب، ولكن عبر نطاق الحضارات جميعا. وهو خلال هذا كله إنما كان يؤدي وظيفة لم تؤدها من قبل حضارة أخرى بهذه السعة والعمق؛ حماية التراث الحضاري البشري، وتمكينه من البقاء في مواجهة تحديات السقوط والنسيان والفناء.

ولم يقف العقل الإسلامي عند هذا الحد فأبدع قيما جديدة، وابتكر الكثير من النظم الحضارية التي كانت بمثابة الأسس التي بنت عليها فيما بعد حضارات أخرى. ويكفي العقل الإسلامي شرفا أنه كان عقلا إنسانيا يعمل من أجل الإنسان أيا كان موقعه في الزمان والمكان. فالحضارة الإسلامية مارست وظيفتها بالفاعلية والعطاء؛ لقد كانت تعمل من أجل الإنسان[2].

وذلك يؤكد أن الحضارة الإسلامية في حقيقتها وتاريخها ونواتجها حضارة إنسانية لا تخص جنسا أو لونا أو عرقا أو منطقة جغرافية أو طبقة اجتماعية، وإن كان العرب وبلادهم هي قاعدتها، وهم حملتها الأوائل؛ لقد تجاوزت بدعوتها

---

[1]. احميده النيفر، ختم النبوة: مولد إنسان جديد، مجلة منبر الحوار، بيروت: إصدار دار الكوثر/لبنان، السنة السابعة/العدد 26، خريف 1992، ص45-44.

[2]. ينظر ذلك بتفصيل في: حول إعادة تشكيل العقل المسلم؛ ص66-88.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

وممارستها كل الفوارق القسرية التي لا يد للإنسان في وجودها، وجعلت معيار الكرامة فعلا كسبيا، بمقدور كل إنسان أن يرقى إليه، وليس أمرا قسريا لا يد له فيه؛ كما تقرر ذلك الآية الكريمة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: 13].

وقد جاءت معظم آيات القرآن المكية تؤكد الوحدة الإنسانية وتحطم الفوارق التمييزية، قبل أن يكون للمسلمين دولة، وكانت الوحدة الإنسانية من المقومات الأساسية التي نص عليها الوحي، ولم يدع مجالا للمساومة عليها أو تجاوزها، وكان عطاء الوحي موجها إلى العالمين، بل لقد كانت الغاية من الرسالة الإسلامية وإنتاجها الحضاري هي إلحاق الرحمة بالناس كافة؛ مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: 107].

وكان الإسلام أول من دعا إلى فكرة المواطن العالمي في أمة الإسلام، والتمتع بالحقوق والواجبات كافة في دولة الإسلام، بمجرد أن يعتنق الإنسان الإسلام، وبذلك انتفت عن الإسلام وحضارته إصابات العنصرية والعرقية، وعقدة الشعب المختار التي لم تبرأ منها الحضارات البشرية بشكل أو بآخر. وبذلك فالإسلام بطبيعته يناقض التعصب والانغلاق ويعتبرهما من الجاهلية وآفاتها وسفهها؛ لأن التعصب المحتمل أو العارض، لا يلبث أن يكسر بمجرد الدخول في الإسلام.

لذا كانت الحضارة الإسلامية إنسانية، تعترف بالآخر وتبتغي إلحاق الرحمة بالعالمين وتتغيى الهداية لهم، وليست حضارة حقد وصراع، فهي تدعو إلى الحوار، وتعتمد الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وتتنكر للإكراه في الدين؛ لأن كل الناس هم محل الخطاب السماوي[1]. ذلك أن المبادئ والأحكام الكلية التي جاء بها الإسلام تتضمن، بالإضافة للدعوة إلى الإيمان، أصولا كلية لا تتوقف الاستجابة لها على الإيمان المسبق؛ لأنها تعتمد على العقل والمنطق، وتخاطب الفطرة، وتدعو إلى ما فيه مصلحة عامة للبشر لا ينازع فيها أحد.

وحيث أن تحقيق هذه الأصول لا يمكن ترجمتها إلى أحكام عملية جزئية يخاطب بها جميع البشر تكليفا من الله؛ فإنه يقع على المؤمنين عبء السعي إلى تحقيقها. ومن هنا كان من مقاصد الشريعة في مجال الإنسانية؛ مقصد التعارف والتعاون والتكامل، ومقصد تحقيق الخلافة العامة للإنسان في الأرض، ومقصد تحقيق السلام العالمي القائم على العدل،

[1]. أحمد القديري، الإسلام وصراع الحضارات، كتاب الأمة 44، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط1، (ذو الحجة 1415هـ/ماي 1995م)، (طبعة خاصة بالمغرب؛ منشورات الفرقان، الدار البيضاء: نفس التاريخ)، تقديم: عمر عبيد حسنه؛ ص29-33.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110 ISSN:2958-8537 Issue: N14
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

ومقصد الحماية العالمية لحقوق الإنسان في أي مكان، ومقصد نشر الدعوة الإسلامية في المحيط الإنساني باعتبار الإسلام رسالة عالمية[1].

وهذا من خصائص الرسالة الإسلامية والأبعاد التي تنطوي عليها الخاتمية التي اقتضت أن يكون الإسلام دين الإنسانية، ومن ثم لو أن جميع الأديان التي عرفها الناس قبل الدعوة المحمدية وضعت أمام الباحثين يومئذ لما استطاعوا أن يستخلصوا منها ظهور دعوة دينية تخاطب أمم الإنسانية جميعا. فمن الواجب أن نفرق بين دين التوحيد ودين الإنسانية في هذه الخصلة؛ فقد وجدت أديان تدعو الأمم إلى التوحيد قبل دعوة الإسلام، ولكنها لم تكن تدعوهم لأنها تسوي بينهم وترى لهم حقا واحدا في عبادتهم، بل كانت تدعوهم إلى عبادة ملك واحد في السماء وملك واحد في الأرض، كأنها مسألة سيادة لا مسألة مساواة.

وقد جاءت الدعوة إلى التوحيد قبل الإسلام من طريق توحيد الدولة وفرض السلطان الواحد والعبادة الواحدة حيث تبسط سلطانها. إن هذا التوحيد وجد قبل الإسلام، ولكنه أبعد شيء عن دين الإنسانية الذي نعنيه، وهو الدين الذي يتجه إلى جميع الأمم بدعوة واحدة على سنة المساواة بين الشعوب والأجناس والتماس الهداية للغالب والمغلوب، فشتان دعوة إلى توحيد العبادة تقوم على السيادة والاستعباد، ودعوة إلى توحيد الإنسانية في حقوق واحدة وهداية واحدة وإيمان واحد بإله لا إله غيره يتساوى الناس بين يديه ولا يتفاوتون بغير الفضل والصلاح[2].

ويمكن النظر إلى فكرة ختم النبوة من جانب آخر على كونها فكرة تعلن انتهاء الدورات الحضارية؛ فالحضارات كانت تسير وفق الدورات؛ أي أنها تولد ضعيفة ثم تقوى وتشتد ثم تضعف وتزول، ولكن الحضارة ليست كالإنسان الفرد، يتعرض لتحلل حياته العضوية، فالحضارة تحللها فكري نفسي، وهذا قابل للعلاج والزيادة والنمو، إذا عرف الإنسان سننه. ولكن بانتهاء النبوة وختمها فقد انتهت الدورات وأمسك الإنسان بسنن الحضارة، ليجعلها مستمرة؛ فمعنى ختم النبوة ختم الدورة الحضارية. وهذه الميزة تضاف للميزة الأخرى التي ذكرناها وهي أن البعثة المحمدية للناس كافة، التي فيها فكرة عالمية الحضارة، وانتهاء زمن تعدد الحضارات، وإن كنا لا نزال نعيش دورة الحضارة وتعددها،

[1]. تنظر تلك المقاصد بتفصيل في: جمال الدين عطية، نحو تفعيل مقاصد الشريعة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي/دار الفكر-دمشق، ط1، (1422هـ/2001م)، ص165-172.

[2]. مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية، م، س، ص138-139.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

إلا أن إرهاصات زوالها بدأت تبرز لمن تأمل. هذه حقائق تشير إليها آيات الآفاق والأنفس، فالعالم يسير بخطى حثيثة إلى العالمية يوما بعد يوم، مدفوعا غير مختار[1].

وارتباط فكرة عالمية الحضارة بختم النبوة يحيل على رسالة الأمة الإسلامية تجاه العالم؛ ذلك أن فكرة العالمية المتصلة مباشرة بفكرة الخاتمية، تشير إلى دلالتها على الصعيد المنهجي والفكري والعملي، لفهم المسلم لرسالته بصورة خاصة، وفهمه لحركة العالم ومآله بشكل عام. فإن ختم النبوة إعلان رسمي على انطلاق عهد الفعالية الحضارية الطويلة، وبداية عصر البحث عن البرهان الواقعي، والعملي على فكرة عالمية الإسلام، التي تقررت في العقيدة الإسلامية كأساس من أسس الدعوة التوحيدية. فإننا في واقعنا الراهن نعيش معطيات العصر العالمي، ولكن يبدو أننا لم نفكر بعد، كما لم تفكر الحضارة الغربية بجد في موضوع العصر العالمي، وتحدياته، وشروط العيش فيه. من هذه التحديدات الأولية، تبدو لنا أهمية فكرة عالمية الحضارة كمشروع حضاري، يطلب منه أن ينقل البشرية إلى طور حياتي جديد على الصعيد العقلي والسلوكي[2].

والحضارة الإسلامية بمقوماتها التي تجعلها حضارة الفطرة، ومبادئها التي تؤهلها لأن تكون حضارة الإنسانية؛ لما يتوفر فيها من القيم الدينية العليا السليمة المستقاة من الوحي السماوي، وما تحتويه من التشريعات المحكمة العادلة بما لا يترك مجالا لعدوان الإنسان على أخيه أو تسلطه عليه، ومساواة شريعتها لجميع الناس أمام خالقهم؛ فإن هذه الحضارة تمثل الملاذ الآمن وتعِد بالمستقبل الزاهر للبشرية جمعاء.

الخاتمة

خلصت هذه الدراسة إلى جملة من الأفكار الأساسية، التي تقرر مجموعة من النتائج، مع الخروج بتوصيات تفتح المجال لمزيد من البحث في استثمار المعطيات والنتائج المتوصل إليها؛ وهو ما يمكن إجمال وإيجاز أبرز عناصره فيما يلي:

الاستنتاجات:

- إن منهج النبوات قد بلغ درجة الكمال مع النبوة الخاتمة؛ مما ألغى التطلع لبعث أنبياء يكونون وُسَطاء بين الناس وبين خالقهم عز وجل في تبليغ وبيان شرعه لهم، ووضَع مسؤولية حمل وتبليغ الرسالة الإلهية على كاهل الأمة وعلمائها

[1]. اقرأ وربك الأكرم، م، س، ص231 -233.
[2]. المنهج النبوي والتغيير الحضاري، م، س، ص75-76.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

لمواصلة رسالة الأنبياء، والقيام بمهمة التربية والإصلاح؛ حيث لمّا كان من مقتضيات ختم النبوة عالمية الرسالة الخاتمة؛ فإن من أبعاد ذلك ضرورة استمرار جهود الدعوة وتبليغ الهدى لكافة الناس، قياما بمسؤوليات الأمانة العظمى التي تستدعيها خاتمية الرسالة الإسلامية؛ من طرحها رسالة عالمية متجاوزة خصوصيات الزمان والمكان، مخاطبةً الفطرة الإنسانية وما يتعلق بها من مقومات المشترك الإنساني، ومخاطبةً العقل الإنساني الاستدلالي الملتزم بمعايير الأدلة والمسترشد بقيم الوحي الإلهي.

- إن منهج النبوة الخاتمة جعَل رسالة الإنسان جليّة ومسؤوليته واضحة بعد اكتمال عقله ورشده، وكُلف وفق نص القرآن -في إطار الأمانة التي حملها- بتدبر الكتاب المسطور: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: 24]، والنظر في آفاق الكتاب المعمور: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ} [العنكبوت: 20]، {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [يونس: 101]؛ وبذلك جَعلت الرسالة الخاتمة آفاق معرفة الإنسان بلا حدود؛ بربطها باستنباط معاني ودلالات آيات القرآن الكريم واكتشاف كنوزه وعجائبه التي لا تنقضي، مقرونة باكتشاف نظام الكون الفسيح وآيات آفاقه وسننه المحكمة الدالة على خالقه تعالى.

- إن تلك الآفاق القرآنية والكونية الواسعة التي ينبغي التدبر والتفكر فيها، والسعي لاكتشاف مكنوناتها؛ تعد من أعظم مستلزمات المهمة الاستخلافية، مما يجعلها من أهم الأمور المطلوبة من الأمة الإسلامية خاصة، والإنسانية عامة، بعد ختم النبوات والرسالات السماوية؛ حيث ترتبط الآفاق المعرفية الإنسانية بتوظيف الدعائم العقلية في الغوص عن معاني الكتاب العزيز وكشفها، بموازاة النظر في الكون لاكتشاف تناسقه البديع، بواسطة العلوم الدالة على إحكام نظامه وجعله مسخرا لخدمة الإنسان، المطالب بالإفادة من خيرات عالمه والحفاظ عليه.

- إن ذلك يكون في انسجام مع ما جاءت به الرسالة العالمية، التي بلّغها وبينها النبي الخاتم، والتي تحمل للإنسانية أسس تحقيق العمران والحضارة؛ بما احتوته من قيم عليا وأخلاق سامية توجه الإنسان إلى تزكية نفسه، وما تضمنته من أحكام وقواعد ومبادئ تشريعية، وما انطوت عليه من مقاصد تستهدف تحقيق العدل بين الناس ونشر الخير والإحسان والرحمة في عالمهم، وما تؤكد عليه من حسن استعمال ما أودعه الله في الإنسان من ملكات وقدرات عقلية في إطار قواعد العقلانية العلمية.

التوصيات:

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

إن مجمل النتائج التي تم تقريرها، تحيل على مواصلة الدراسة والبحث فيما يتعلق بقضايا تجديد الفكر الإسلامي المعاصر، ومن هذا المنطلق يجدر التأكيد على توسيع مجال النظر والتأمل في ملامح منهجية تجديد فكرنا، لكي يكون مواكبا لمشروع النهضة الحضارية المنشودة؛ بالنظر في علاقة الإشكالات التي يطرحها الاجتهاد التجديدي بفهم وإدراك القضايا الدينية الكبرى، والتي منها قضية دلالات وأبعاد ختم النبوة، واستثمار ذلك الفهم والإدراك في الواقع؛ من عدة جهات؛ منها:

- المساهمة في تقويم وتنمية مختلف شؤون أمتنا الإسلامية على المستويين الفردي والمجتمعي.
- العناية بتحديد مواقفنا من مختلف الأديان والثقافات والحضارات، وضبط أصناف علاقاتنا بها.
- الاهتمام باستثمار المشتركات بين البشر في التعاون بينهم، وعلى رأسها القيم الإنسانية والمبادئ الأخلاقية النبيلة.
- العمل بمختلف الوسائل على إبراز الوجه الحضاري الإنساني للإسلام، وإسهامه الكبير في تشييد صرح الحضارة الإنسانية.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

ـ لائحة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- أحمد بن حنبل، المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الأولى، 1421ه/2001م.
- إقبال، محمد، تجديد الفكر الديني في الإسلام، ترجمة: محمد يوسف عدس، القاهرة: دار الكتاب المصري، بيروت: دار الكتاب اللبناني، (د. ط)، 2011.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، (د. م)، ط: الأولى، 1422ه.
- برغوث عبد العزيز بن مبارك، المنهج النبوي والتغيير الحضاري، كتاب الأمة 43؛ قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط: الأولى، (رمضان 1415ه/فبراير 1995م)، طبعة خاصة بالمغرب؛ منشورات الفرقان، الدار البيضاء؛ (شوال 1415ه/مارس 1995م).
- ابن بلبان الفارسي، علاء الدين علي، (ت: 739هـ)، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، (لـ: محمد بن حبان البُستي، ت: 354هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الأولى؛ 1408هـ/1988م.
- البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية؛ دار السلام، القاهرة؛ ط.: السادسة؛ 1419هـ/1999م.
- البيهقي، أبو بكر، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الثالثة، 1424ه/2003م.
- الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي (جامع الترمذي)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (د. ط)، 1998م.
- الجليدي، مصدق، ختم النبوة بديلا عن موت الإله أو بناء الحداثة في السياق الإسلامي؛ 2008/10/16؛ موقع أنفاس /http://www.anfasse.org
- جودة سعيد، اقرأ وربك الأكرم، بيروت: دار الفكر المعاصر/لبنان، تصوير ط: الثانية، (1415ه/1994م).
- حللي، عبد الرحمن، منهجية الرسالات ودلالات ختم النبوة؛ مجلة إسلامية المعرفة، السنة العاشرة، العدد 40، ربيع 1426هـ/2005م. وأيضا بموقع الملتقى؛ في: http://www.almultaka.org/home.php 2006/3/03
- خليل، عماد الدين، حول إعادة تشكيل العقل المسلم، كتاب الأمة 4؛ قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط: الثانية، رمضان 1403ه.
- الدارمي، عبد الله، سنن الدارمي (مسند الدارمي)، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني، السعودية، ط: الأولى، 1412هـ/2000م.
- أبو داود سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د. ط)، (د. ت).
- دراز، محمد عبد الله، الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، الكويت: دار القلم، ط: الثانية، (1390ه/1970م).
- الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت؛ ط. الثالثة: 1420هـ.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

- ابن راهويه، إسحاق بن إبراهيم المروزي (ت: 238هـ)، مسند إسحاق بن راهويه، تحقيق: د. عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي، مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، ط: الأولى؛ 1412ه/1991م.

- السوسوه الشرفي، عبد المجيد، الاجتهاد الجماعي في التشريع الإسلامي، كتاب الأمة 62، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط: الأولى، ذو القعدة 1418ه (طبعة خاصة بالمغرب؛ منشورات الفرقان، الدار البيضاء: (محرم 1419ه/ماي 1998م).

- الشاطبي، الموافقات، تحقيق: أبي عبيدة آل سلمان، دار ابن عفان، ط: الأولى، (1417ه/1997م).

- صبري، مصطفى، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، بيروت: دار إحياء التراث العربي/لبنان، ط: الثانية، (1401ه/1981م).

- الصلابي، علي محمد، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث؛ دار المعرفة، بيروت، لبنان؛ ط.: السابعة: 1429هـ/2008م.

- الطاهري، عادل، الدلالات الفلسفية لختم النبوة؛ 2014/3/01؛ موقع البديل http://elbadil.com/

- الطبراني، سليمان بن أحمد الشامي، (ت: 360هـ)، المعجم الصغير (الروض الداني)، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، المكتب الإسلامي/ دار عمار، بيروت/ عمان، ط: الأولى؛ 1405هـ/1985م.

- الطريري، عبد الرحمن، العقل العربي وإعادة التشكيل، كتاب الأمة 35، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط: الأولى، شوال 1413ه.

- عشراتي، سليمان، واقع الإنسانية فيما بعد عصر النبوة مدخل للحديث عن دور العلماء ورثة الأنبياء، بحوث المؤتمر العالمي العاشر عن فكر بديع الزمان النورسي: دور النبوة ومكانتها في البحث عن الحقيقة في منظور رسائل النور؛ المنظم بين 22-2013/9/24، مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم، (د. ط)، 2013.

- عطية، جمال الدين، نحو تفعيل مقاصد الشريعة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي/دار الفكر-دمشق، ط: الأولى، (1422ه/2001م).

- العقاد، عباس محمود، مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية؛ كتاب الهلال 50؛ دار الهلال، القاهرة -مصر، (د. ط)؛ رمضان 1374ه -ماي 1955م.

- عمارة، محمد، الإسلام وقضايا العصر، بيروت: دار الدوحة، ط: الأولى، 1980.

- الغزالي، محمد، فقه السيرة؛ دار الكتب الحديثة، القاهرة؛ ط. الثامنة: 1408هـ/1988م.

- الفاسي، علال، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، مؤسسة علال الفاسي، ط: الرابعة، (1411ه/1991م).

- القديري، أحمد، الإسلام وصراع الحضارات، كتاب الأمة 44، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط: الأولى، (ذو الحجة 1415ه/ماي 1995م)، (طبعة خاصة بالمغرب؛ منشورات الفرقان، الدار البيضاء: نفس التاريخ).

- القرضاوي، يوسف، العبادة في الإسلام، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط: الثانية عشرة، (1405ه/1985م).

- ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط.: الثالثة عشرة: 1406هـ/1986م.

- ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، بيروت: دار الكتب العلمية، (د. ط)، د. ت.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
العدد الرابع عشر : ص.ص 64- 110 ISSN:2958-8537 Issue: N14
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

- ابن ماجه، محمد، سنن ابن ماجه، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وآخرون، دار الرسالة العالمية، ط: الأولى، 1430هـ/2009م.
- المباركفوري، صفي الرحمن، الرحيق المختوم؛ بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام؛ المنصورة: دار الوفاء، ط: الثانية، (1420هـ/2000م).
- محمد رشيد رضا، ملخص سيرة الأستاذ الإمام (5)؛ مجلة المنار؛ غرة ذو الحجة 1323هـ/26 يناير 1906م.
- محمد بن سلامة المصري (ت: 454هـ)، مسند الشهاب، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الثانية؛ 1407ه/1986م.
- محمد عبده، رسالة التوحيد، تحقيق: محمود أبو رية، دار المعارف بمصر، ط: الثالثة، د. ت.
- مرتضى مطهري، ختم النبوة، ترجمة: عبد الكريم محمود؛ دار المحجة البيضاء/دار الرسول الأكرم، (د. ط)، د. ت.
- مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. ط)، (د. ت).
- الميداني، عبد الرحمن حسن حنبكة، الأخلاق الإسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق، ط: الثانية؛ 1407ه/1987م.
- الميلاد، زكي، نظرية ختم النبوة ودور العقل في الإسلام، مجلة الكلمة http://kalema.net/home/ تصدر عن منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، العدد 72، السنة الثامنة عشرة، (صيف 2011م/1432هـ).
- النقيب، عبد الرحمن، وصلاح مراد، مقدمة في التربية وعلم النفس؛ المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الرباط، (د. ط)؛ 1407هـ/1987م.
- النيفر، احميده، ختم النبوة: مولد إنسان جديد، مجلة منبر الحوار، بيروت: إصدار دار الكوثر/لبنان، السنة السابعة/العدد 26، خريف 1992.
- النيفر، احميده، قضايا السلم الاجتماعي ومناهجه في القرآن الكريم، مجلة التفاهم http://tafahom.om/ العدد 42، سنة (1434هـ/2013م).
- ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر؛ ط: الثانية؛ 1375هـ/1955م.